المكتبة الثقافية
١٢٣

الاستعمار والتحرير في العالم العربي

الدكتور جمال حمدان

الثقافة والإرشاد القومي
الدار المصرية للتأليف والترجمة



دار القلم

المكتبة الثقافية

- أول مجموعة من نوعها تحقق اشتراكية الثقافة
- تيسر لكل قارئ أن يقيم فى بيته مكتبة جامعة تحوى جميع ألوان المعرفة بأقلام أساتذة ومتخصصين وبقرشين لكل كتاب
- تصدر مرتين كل شهر فى أوله وفى منتصفه

الكتاب القادم

الآثار المصرية
فى الأدب العربى

للدكتور أحمد أحمد بدوى

أول يناير ١٩٦٥

الثمن ٢ م

مطابع دار القلم

المكتبة الثقافية
١٢٣

الاستعمار والتحرير في العالم العربي

الدكتور جمال حمدان

الثقافة والإرشاد القومي
الدار المصرية للتأليف والترجمة



توزيع

دار القلم

١٨ شارع سوق التوفيقية بالقاهرة
ت ٥٥٠٣٢ — ٧٧٧٤١
طنطا ميدان الساعة
ت : ٢٥٩٤

١٥ ديسمبر ١٩٦٤

مقدمة

عصرنا الذى نعيشه عصر فوّار بالتغير المذهل فى السياسة كما هو مثير فى غير السياسة . وإذا عد القرن التاسع عشر قرن الاستعمار ، فإن القرن العشرين هو بلا ريب قرن التحرير. ومنذ الخمسينات ونحن نعيش عقداً مفعما شهد أعظم انقلابات فى موازين القوة فى العالم ، وشهد تحرر المداريات وتفجر القومية العربية . وفى كل ركن من العالم — وليس العالم العربى باستثناء — لن يجد القارىء المثقف مشقة فى أن يرى الأحداث تسبق الأبحاث . من هنا كنا بحاجة إلى الكتابات التى تحاول أن تنظر إلى الصورة ككل دون أن تضيع فى زحمة التفصيلات اليومية والأحداث الجارية .

ويستطيع القارىء العربى بلا شك أن يجد مكتبة كاملة

فى تاريخ الاستعمار فى عالمنا العربى ، ولكنها فى معظمها لا تعبر إلا عن وجهة نظر الاستعمار ومصالحه . أما إذا تلفت باحثا عن شىء فى حركة التحرير المعاصرة التى تتواثب فى منطقتنا وتتفجر ، فلن يجد نفسه إلا إزاء « مؤامرة صمت » متعمدة من جانب الاستعمار . فإن قطع هذا الصمت صوت ما فهو حملة تشويه وتشهير ملفقة . وهل ينتظر الآن لمن كتبوا أو ممن كتبوا جغرافية الاستعمار وتاريخه أن يكتبوا لنا اليوم جغرافية التحرير أو تاريخه ؟ ذلك أمر ليس من الواقعية فى شىء أن ننتظره ، ولكنه من الناحية الأخرى قد أصبح مسئولية المفكر العربى وحده ورسالة الكاتب الوطنى دون سواه . . .

والكتاب الحالى تعبير عن شعور المؤلف بمسئولية الجغرافى العربى المعاصر عن المشاركة البناءة فى الأحداث الخطيرة التى تنبع من وطننا وفى وطننا تنصب . ومن حسن الحظ أن من مزايا الجغرافيا السياسية — تلك التى يدور فى فلكها هذا الكتاب — أنها تكتب للمثقف العام والمواطن المتفتح بمثل ماتقدم للعالم المتخصص — أكثر من هذا ، إن من مميزات المنهج الجغرافى فى هذا الصدد أنه — صيغة وصبغة — يعطى للحقائق والأحداث السياسية المتميعة بطبعها بعض الشىء والتى لا شكل

محدد لها أحيانا ، يعطى لها قالباً إقليميا محدد السمات والقسمات ، وإطارات مكانية واضحة فى الذهن ، بحيث يبسط الحقيقة التاريخية والسياسية للقارىء فى سهولة ويسر .

هكذا سنرسم أولا صورة للاستعمار كما عرفه العالم العربى ، سواء فى إرهاصاته ومقدماته الأولى فى العصور الوسطى أو فى موجته المدّية الآثمة الحديثة . ثم نمضى مع اهتزازة البندول لنرى الاستعمار وهو يعبر خط الزوال ويدخل مرحلة الشفق — لعلها الآن الغسق ! — إلى أن « يحمل عصاه على كاهله ويرحل » . بعدها نرسم صورة جديدة مشرقة لموجة التحرير: مراحلها ومحركاتها ، اتجاهاتها ومُثُلها ، نقاط قوتها ومواطن ضعفها . كيف دفن الوليد الجديد جثة الاستعمار العجوز ، وكيف يطارد الآن آخر أشباحه بل وتناسخ أرواحه . . . فما العميل الغادر إسرائيل إلا محاولة لتحل روح الاستعمار الطريد فى جسم هذا الاستعمار الصهيونى الشريد . ولكن لنا من الآن أن نبشر هذا وذاك بالنسخ لا بالتناسخ . . .

الباب الأول

قصة الاستعمار فى العالم العربى

قبل الاستعمار الحديث

الاستعمار الصليبي :

يسبق الاستعمار الأوربى الحديث للعالم العربى تاريخ طويل من الاستعمار يمكن أن نصفه فى خصائصه ودوافعه وتركيبه « بالاستعمار الوسيط » . فقد كان يتخفى وراء الدين فى شكل أو آخر . ولم يكن هذا الاستعمار يأتى من جانب دين آخر غير الإسلام فقط ، بل كان للغرابة يتستر أيضاً تحت رداء الإسلام نفسه . وهو فى مجموعه لم يكن منظما مقنّناً كالاستعمار الحديث .

ولهذا الاستعمار الوسيط بدوره أصول وطلائع قديمة ، لا نغالى إن تتبعنا أول خيوطها إلى العصور الكلاسيكية . فكل من الإغريق والرومان خرج للاستعمار البحرى عبر البحر المتوسط حيث كانت الوجهة الجنوبية فى الشرق الأدنى والأوسط هى المجال الاستعمارى الرئيسى . وظل الاستعمار الإغريقى قرونا حتى ورثه الاستعمار الرومانى رافعاً شعار « بحرنا Mare Nostrnm »

أولا ومحققا ما عرف فيما بعد « بنظرية وحدة البحر المتوسط ».
وكان هذا بداية عملية الشد والجذب ، أو لعبة شد الحبل tug — of — war التاريخية ، التى شهدها ساحلا البحر المتوسط ، وأصبحت ملمحاً سياسياً أساسياً منذ ذلك الحين فى تاريخ الحوض .

ذلك أن الغزو العربى لم يلبث أن جاء من الساحل الجنوبى كرد فعل لتسلط الاستعمار الرومانى والبيزنطى عليه . وهنا لم ينحسر الاستعمار الأوربى عن الساحل الجنوبى فحسب ، بل لقد انتقل مركز الثقل فى القوة إلى الساحل الجنوبى . والسبب فى ذلك الانقلاب فى ميزان القوى هو الفارق الحضارى الجديد فقد كان هذا بداية الأوج الحضارى و « العصر الذهبي » للعالم العربى بينما كانت أوربا تعيش « عصورها المظلمة » ، وبينما كان العالم العربى واسطة الدنيا ووسيطها التجارى الأول كانت أوربا على حافة المعمور وتحت رحمة المواصلات العربية . هكذا طغى المد العربى على الساحل الشمالى فأخضعه أو على الأقل أخضع القطاعات الاستراتيجية الحرجة فيه وهى كل جزر البحر شرقا وغربا ابتداء من « قبرس وإقريطش » حتى مينورقة وميورقه ، ثم « الصقليتان » « صقلية وجنوب شبه الجزيرة الإيطالية »

ومعظم أيبريا ، بل وزحف شمالا إلى قلب فرنسا وأرسل لسانا إلى سويسرة . وبهذا تحول البحر المتوسط إلى بحيرة عربية مغلقة وخضع جنوب أوربا لـكماشة عربية فـكاها فى أقصى الشرق فى تخوم الأناضول وفى أقصى الغرب فى أيبريا .

ولـكن هذه الـكماشة لم تلبث أن تراخت ثم تفـككت وارتدت الموجة العربية ثانية إلى الساحل الجنوبى . وقد شاءت أوربا أن تجعل من هذا اللقاء حربا دينية ومن البحر المتوسط « خندقا » moat عميقاً بين المسيحية والإسلام وأن تواصل « المبارزة » duel التاريخية عبره وعبر « كباريه المتحركة » draw bridges الممثلة فى جزره ومضايقه الاستراتيجية .

« ومن المفيد لنا أن نحفظ فى أذهاننا دائماً هذه الصورة الرمزية للموقف ، ليس فقط لأنها تعبر عن استراتيجية العصور الوسطى بلغة وفنون العصور الوسطى ، وإنما أيضاً لأنها تشبيه أثير حتى اليوم عند الـكتاب والمؤرخين الأوربيين » .

ومن ثم بدأت الحروب الصليبية التى تتألف من عدة موجات تشنجية موزعة على بضعة قرون . هل نقول من جانبنا تلك كانت أول وأطول « حرب خنادق » فى التاريخ تتم على نطاق إقليمى أو شبه قارى ؟ ومن الثابت تاريخياً أن الدافع الدينى

لم يكن إلا قناعا مذهبيا لاستعمار مادى بحت ، وأوضح دليل هو أن أكبر مؤيدى الحروب الصليبية — بل أكبر تجارها — لم يكن سوى كبار تجار البندقية وجنوه وغيرها ممن كان لهم مصلحة مادية حاسمة فى تجارة الشرق .

على أن سيوف الصليبية تكسرت فى النهاية على أسوار القلعة العربية فى الشام ومصر إذ لم يستطع الاستعمار الصليبي أن يثبت أقدامه إلا فى عدة ممالك ممزقة مبعثرة من ممالك الجيب فى الشام والأراضى المقدسة لبضعة عقود متقطعة . وعاد البحر المتوسط خندقا راكداً إلا من مناوشات القراصنة والمغامرين من الجانبين ولكن حالة من الرهو والتأهب تخيم عليه . وفى ظل هذا الهدوء المؤقت انعطفت أوربا على نفسها وعكفت تتعلم من الدرس الذى نالته من الصليبيات : لم يكن هو درساً استراتيجيا فحسب وإنما كان أساساً درساً حضارياً . فقد احتكت أوربا الوسيطة المظلمة بحضارة العرب المشرقة واستعارت منها ما وسعها ، ثم أخذت تنميه وتعمقه فكانت النهضة الأوربية التى بدأت رحلة التطور الذى سيصل بنا فى النهاية إلى الاستعمار الأوربى الحديث .

الاستعمار التركى :

على أن الاستعمار الدينى المسيحى لم يكد ينحسر عن الساحل الجنوبى حتى ورثه استعمار دينى آخر وإن اختلف الدين . فمن الساحل الشمالى مرة أخرى من الأناضول جاءت موجة الاستعمار التركى ، وهو نوع محير من الاستعمار لأنه كاستعمار دينى إنما اتخذ من وحدة الدين غطاء يخفى به حقيقته كاستعمار سياسى لا شك فيه . وفى روح العصر الدينية وبفضل تراث الحروب الصليبية استطاع الاستعمار التركى أن ينجح لا فى اكتساح العالم العربى بسرعة فحسب ولكن فى البقاء فيه قرونا برمتها أربعة . ومن المؤكد أنه لولا الوشيجة الدينية فى عصر الدين بالضرورة لكان مصير الاستعمار التركى منذ البداية كمصير الغزو المغولى الوثنى الذى سبق بقليل وقام له العالم العربى والإسلامى قومة أكثر من فدائية .

ولكن القناع الدينى الوهمى الذى خدع العالم العربى فى البداية لم يلبث بعد قليل أن تمزق فكان رد الفعل القومى عنيفا فى النهاية . ولم يقلل من هذه الحقيقة أن الاستعمار الدينى التركى لم يقتصر على العرب المسلمين على الساحل الجنوبى للبحر

المتوسط بل عبر المضايق إلى أوربا المسيحية حتى طرق أبواب فينا . وسيلاحظ أن الاستعمار التركى اكتسح العالم العربى فى سرعة غير عادية ، ففى نحو عقد كان قد غطى الجزء الأكبر منه . ولكن ثمة جيبين رئيسيين هامشيين لم يخضعا لا إسما ولا فعلا للاستعمار التركى : مراكش أو المغرب الأقصى فى أقصى الغرب وساحل الخليج الفارسى « العربى » ابتداء من الحسا والكويت حتى عمان فى أقصى الشرق .

ولقد كان الاستعمار التركى يقوم على نوع من التفرقة العنصرية بين التركية أو الطورانية « كالجنس السيد » فى ناحية والعرب أو الفلاحين كالجنس المحكوم — ولا نقول حتى كمواطنين من الدرجة الثانية — فى الناحية الأخرى . وفى ظل هذه النعرة العنصرية اتخذ المستعمر التركى سياسة العزلة والترفع ، فتقوقع اجتماعيا وجنسيا فى شكل مستعمرات مغلقة تتزاوج دخليا ولهذا كان أثرها فى العالم العربى ضئيلا حتى انقرض . ولم تكن الامبراطورية العثمانية تختلف فى الجوهر عن الاستعمار الأجنبي الحديث : فقد كانت تركيا هى « المتربول » وبقية الإيالات والولايات مستعمرات تابعة ، تعتصر كل مواردها وخيراتها

بلا مواربة لتحشد حشدا فى المتروبول . وقد كانت كل عظمة وخيلاء الأستانة هى تعاسة وابتزاز الأقاليم .

أما دينيا فقد قامت الامبراطورية الدينية التركية على سياسة طائفية عاجزة ضيقة الأفق هى « سياسة الملة » milet system التى تفاقمت خاصة فى أخريات الامبراطورية . وقد نشأت سياسة الملة نتيجة لقصر نظر الاستعمار التركى من ناحيه وضعفه وعجزه أمام ضغط القوى الأوربية من ناحية أخرى . فرغبة فى سياسة « فرق تسد » حدد الأتراك مسؤولية الأقليات الدينية فى زعاماتها وقياداتها الطائفية. فبدأت من هنا تتبلور شخصياتها داخل جسم الدولة ، ثم تجمدت حين فرضت القوى الأوربية نوعا من الحماية على هذه الطوائف وانتزعت لها من الدولة مثل الامتيازات الأجنبية » التى كانت لها ثم الحكم الذاتى فى بعض الحالات . وفى هذا سنلاحظ المسحة الدينية مرة أخرى فى تركيب الاستعمار الوسيط . ويمكن القول إن نظام الملة هو الأب المباشر لمشكلة الطائفية التى كانت تعرفها أجزاء من العالم العربى لقد كانت إرثا من الاستعمار التركى لا شك فيه .

أما من الناحية الحضارية فالاستعمار التركى نوع شاذ — سالب ربما — من الاستعمار . فإذا كان الاستعمار السياسى

بالمفهوم الحديث هو فى التحليل الأخير سيطرة حضارة راقية على حضارة متخلفة ، فقد كان العكس هو الأساس فى الاستعمار التركى . فقد بدأ كقوة استبسية محاربة بحتة ، قوة فرسان هدامة من الرعاة ، بلا حضارة ولا جذور تاريخية بل و بلا وطن أمّ محدد . هذا بينما كانت الامبراطورية تتألف من شعوب عريقة قديمة مستقرة وحضارات زراعية راقية . ولكن القوة الحربية العمياء فقط ، قوة الخيالة إزاء المشاة ، هى التى قلبت التوازن . والواقع أن الأتراك إذا كانوا قد استعمروا العرب سياسيا فقد استعمرهم العرب حضاريا بمثل ما أن الرومان من قبل استعمروا اليونان حربيا ولكن اليونان استعمروهم ثقافيا . فبينما لم يترك الأتراك أى أثر حضارى بنّاء فى العالم العربى كانوا عالة على تراث العرب — ابتداء من العمارة حتى شكل الكتابة ومن الصناعة حتى الثقافة .

وبعامة فقد كانت « الاستعارة » التركية نهْبا حضاريا وابتزازا مخططا للموارد يقوم على مبدأ Skim the cream . ولم يقتصر هذا المبدأ على الموارد والقوى المحلية زراعية أو صناعية ، وإنما امتد أيضا إلى الموارد الخارجيّة ، أعنى مكاسب تجارة المرور الهامة . فقد فرض الأتراك — وقد

أصبحوا سادة جميع الطرق البرية « الأوفرلاندروت » بين الشرق والغرب — سياسة جمركية غبية لا أخلاقية على أحسن تقدير ، وأدت هذه التجارة الحيوية . ومن الثابت تاريخيا أن ابتزاز الأتراك للتجار الأجانب والتجارة العابرة كان من أكبر الأسباب التي دفعت الغرب وأوربا المسيحية دفعاً إلى البحث المستميت عن طريق بديل إلى الشرق حتى جاءت بالفعل ضربة طريق الرأس القاضية . وقد كان طبيعيا أن يعنى هذا لا الجمود والتوقف فحسب وإنما التدهور الحضارى كذلك .

والواقع أن الاستعمار التركى هو الذى مهد الطريق — حضاريا وتكنولوجيا — للاستعمار الأوربى فى العالم العربى فلقد رأينا أن العالم العربى الإسلامى وقف إلى ما قبل قدوم الأتراك إزاء العالم الأوربى المسيحى موقف الند للند فى حالة رهو عسكرى يرين على خندق البحر المتوسط . ومنذ الاستعمار التركى فقط بدأ الافتراق بين المستوى الحضارى والفنى للغرب والعرب : الغرب إلى أعلى والعرب إلى أسفل . كان الاستعمار التركى نقطة الانعكاس فى المنحنى الحضارى وخط التقسيم بين تقدم الغرب وتخلف العرب . فبينما كان العالم العربى يتدهور بخطى حثيثة ، كانت النهضة الأوربية بعثا risorgimento حقيقيا

ومطردا لم يلبث أن طفر فى قفزات ثلاث هى الانقلاب التجارى Comuercial R. ثم الميكانيكى Mechrnical R. وأخيرا الانقلاب الصناعى ، وقد تعاصر الانقلاب الأول مع أوائل الاستعمار التركى ، بينما تعاصر الانقلاب الأخير مع أواخره .

فأما الانقلاب التجارى الذى بدأ مع طريق الرأس فقد نقل ثروة الشرق إلى أيبريا والبرتغال خاصة ، وصب فيها من الحياة والحيوية بقدر ما أسر من الشرق العربى . وبهذا الانقلاب « سرقت » منه موقعه الجغرافى وطوقته من الباب الخلفى بعد إذ عجزت من قبل من الباب الأمامى . ومع هذا الالتفاف حاول البرتغالى خاصة إحياء الاستعمار الدينى الصليبي فى شكل « الاستعمار الكاثوليكى » . وقد رسم هذا الاستعمار كماشه خلفية حول العالم العربى أطبق فكاها على مراكش فى الغرب وعلى سواحل الجزيرة العربية على الخليج الفارسى فى الشرق . ففى مراكش بدأ الإسبان والبرتغال يتقاسمان النفوذ ومواطىء الأقدام ابتداء من سبته ومبلة حتى موجادور وإفنى . أما على الخليج العربى « الفارسى سابقا » فقد أقام البرتغال المواقع الحربية « Factories » فى هرمز ومسقط وعمان

والبحرين . وكما فشل الاستعمار التركى فى البحر المتوسط شمالا ضد القوى الأوربية فى ليپانتو ، فشل فى بحر العرب والهندى جنوبا ضد البرتغال فى ديو . هذا عن نتائج الانقلاب التجارى الأول .

أما الانقلاب الأخير — الصناعى — فهو الذى حمل الاستعمار الأوربى الحديث مباشرة إلى المنطقة . لهذا فليس صحيحا فى هذا الصدد أن الاستعمار التركى هو الذى وقف حائلا أمام الاستعمار الأوربى وحمى منه الشرق العربى ، بل إن العكس هو الصحيح تماما ! فبصرف النظر عن تخريب القوة الذاتية للعالم العربى على يد الاستعمار التركى ، بدأ التوغل الأوربى فى المنطقة عن طريق « الرجل المريض » وبفضل عجزه ، وفى النهاية كانت هزيمة الاستعمار العثمانى هى السبب المباشر فى انقضاض الاستعمار الأوربى على المنطقة . . . وليس يقل عن ذلك سخرية دعوى هذا الاستعمار الأوربى بدوره فيما بعد بأنه هو الذى « حرر » المنطقة من الاستعمار التركى ! إنما الصحيح أن مضاربات ومناورات ومصالح الاستعمار الأوربى هى التى أطالت صناعيا فى حياة الاستعمار التركى فى المنطقة ، بينما كان

الاستعمار التركى الهدام هو الذى أعد المنطقة فريسة عاجزة للاستعمار الأوربى ثم سلمها هدية غير مقصودة له . أو مقصودة ! لأننا نعلم أن تركيا ، تحايلا منها على البقاء أطول مدة ممكنة إزاء الضغوط الخارجية والانحلال الداخلى ،كانت تبيع حرية ومصير الولايات الخاضعة لها لتشترى بقاءها ، فكانت تتنازل عن ولاياتها واحدة بعد الأخرى للاستعمار الأوربى حتى لا يجهز عليها هى فى عقر دارها . . .



الاستعمار الحديث

الضوابط الأولية :

بدأت أولى إرهاصات الاستعمار الأوربى الحديث فى العالم العربى تظهر على شكل توغل وتغلغل للقوى الأوربية فى الدولة العثمانية حتى كادت أن تقتطع لنفسها فيها مناطق نفوذ سياسى أو دينى أو أدبى ، ومن قبل رأينا الاستعمار البرتغالى يحوم حول أطراف المنطقة دون أن يستطيع أن يمرق إليها تماماً . وقد ظلت مناورات الاستعمار الحديث تتأرجح بلا خطة واضحة مقررة مدة طويلة ، ولم تبدأ أول محاولة جديدة للاستعمار إلا مع الحملة الفرنسية على مصر فى نهاية القرن ١٨ وأول القرن ١٩ . ولكنها كانت تجربة عابرة فاشلة ، ولم يبدأ تيار الاستعمار إلا منذ الثلاثينات مع استعمار الجزائر وعدن .

وهنا سنلاحظ أولا أن هذا التاريخ يتفق مع بدء انطلاق الانقلاب الصناعى فى غرب أوربا فى العشرينات فى بريطانيا والثلاثينات فى فرنسا . أى أن الاستعمار الأوربى الحديث

فى الشرق العربى يتعاصر مع الانقلاب الصناعى . وهذا له مغزاه الكبير . ثانياً سيرى أن هذه البداية تعد متأخرة كثيرا بالنسبة لبداية الاستعمار فى جنوب آسيا وجنوبها الشرقى : ففى آسيا الموسمية كان الاستعمار الغربى قد بدأ منذ القرن ١٦ وأخذ يستقر منذ القرن ١٧ ، ١٨ فى معظم نطاقه ، أى أن الاستعمار فى الشرق العربى لم يكن قد بدأ إلا بالكاد حين كان قد اتخذ شكله النهائى فى الشرق الأسيوى . وهذا ترتيب « عكسى » إذا اعتبرنا منطق الموقع الجغرافى ، فبينما تواجه أوربا العالم العربى وتكاد تلامسه لا يكاد يبتعد العالم الموسمى كثيرا عن المقابل النقيض antipodes لغرب أوربا .

وفى كلا الحالين لم تكن علاقة التوقيت هذه عشوائية بل وظيفة مترابطة . فالاستعمار الأوربى لم يتجه إلى الشرق إلا من الباب الخلفى — باب الرأس ، وهو لم يتجه هذه الوجهة إلا بعد أن فشل طويلا فى اقتحام الباب الأمامى — باب العالم العربى . وقد نجح فى الشرق الأسيوى فى حين فشل فى الشرق العربى لسبب حضارى أساسا وهو أن المستوى الحضارى للأول كان بعامة أقل تماسكا وقوة من المستوى الحضارى للثانى . فرغم كل شىء كان للشرق العربى حضارة قديمة عريقة وقوة أكبر من

هينة . ومن هنا ظل صامداً للضغوط الأوربية المتزايدة فى الوقت الذى تهاوت فيه حضارة آسيا الموسمية ، حتى كانت طفرة الغرب الحضارية الحاسمة فى الانقلاب الصناعى الذى كان إيذانا بعدم جدوى المقاومة . فالفارق إذن بين توقيت الاستعمار الأوربى فى العالم الأسيوى وبين توقيته فى العالم العربى هو فارق حضارى فى التحليل الأخير . إن أوربا استطاعت أن تستعمر الشرق الأقصى بحضارة الانقلابين التجارى والميكانيكى ، ولكنها عجزت عن ابتلاع الشرق الأوسط والأدنى إلا بحضارة الانقلاب الصناعى.

ولكننا نخطىء إذا صورنا توقيت الاستعمار فى الشرق العربى كمسألة « إمكانية » ، إمكانية حضارية فحسب ، فإنه أيضاً قد تحدد كمسألة « حاجة » حاجة جغرافية . لقد ظل الصراع بين الغرب والعرب صراعا محلياً فى ذاته طوال العصور الوسطى حتى لقد كان من الممكن أن يتخذ مسحة دينية . ولكن منذ طريق الرأس والانقلاب التجارى كانت الاستراتيجية العامة قد بدأت ترتج وتهتز دون أن يدرك الطرفان لمدة طويلة المغزى الكامن والنتائج الكاملة للوضع الجديد . ذلك أنه منذ أن أصبح للاستعمار الأوربى امبراطورية ضخمة فى الشرق الأقصى قد أضيفت توا للشرق الأوسط والأدنى أهمية جديدة إلى جانب

أهميته المحلية الذاتية : لقد أصبح فجأة « البوابة الذهبية » إلى أكبر وأعظم مستعمرة عرفها التاريخ : أصبح « عنق الزجاجة » فى طريق الاستعمار. ولقد تكشفت هذه الحقيقة الحرجة الجديدة عارية تماماً سواء للاستعمار الغربى أو للعالم العربى نفسه مع الحملة الفرنسية على مصر . أى أن المطامع الاستعمارية لأوربا فى الشرق العربى أصبحت مزدوجة : موضعية وموقعية .

ومن التقاء هذه الحاجة الجغرافية الملحة الجديدة مع الإمكانية الحضارية المتعاظمة برز الاستعمار الأوربى الحديث على مسرح العالم العربى . وطوال القرن الذى تلى بداية الانقلاب الصناعى كان كلما مضى الوقت كلما زاد إدراك الاستعمار الأوربى لهذه الحاجة من ناحية ، وكلما زادت إمكانياته الحضارية المادية من ناحية أخرى وذلك بسبب انتشار الانقلاب الصناعى فى بقية أوربا شرقاً وجنوبا ، ولذلك كله كلما زاد الاستعمار اشتعالا وانتشارا فى العالم العربى . أصبح مع الصناعة وبسببها وبفضلها ظاهرة « معدية » تتفشى بين أكثر القوى الأوربية . ولهذا شهد العالم العربى منذ ١٨٣٠ تكالبا استعماريا كالتكالب الشهير Scramble الذى شهدته إفريقيا فى نفس الفترة تقريباً . وفى بحر ٨٠ سنة

تقريباً منذ ١٨٣٠ حتى ١٩١٤ كان الجزء الأكبر من العالم العربى قد سقط ضحية للاستعمار الأوربى .

وهنا سنلاحظ أن هذا التوقيت يتفق إلى حد بعيد مع توقيت الاستعمار فى إفريقيا بعامة أو بالدقة أفريقيا عدا السواحل « التى تعاصر الاستعمار فيها مع تاريخه فى الشرق الأقصى » . ولا بد أن نضيف أن تأخر توقيت الاستعمار فى قلب إفريقيا شبه البدائية حينئذ إلى مثل تاريخه فى العالم العربى لا يرجع بطبيعة الحال إلى تشابه فى مستوى القوة الحضارية وإنما إلى فارق حاسم فى الموقع أى القرب والبعد الجغرافى أولا ولكن ثانياً إلى فارق أخطر فى الجغرافيا الطبيعية هو صعوبة ولوج واختراق إفريقيا المدارية المغلقة « المظلمة » . وأخيرا فلنلاحظ أن الاستعمار الأوربى الحديث يأتى الآن — مع روح العصر — فى صورة مادية علمانية سافرة ، يأتى كاستعمار سياسى اقتصادى ، بعكس الاستعمار الصليبي الوسيط . ومع ذلك فهناك أدلة على أن الروح الصليبية لم تنقرض تماما فى بعض الحالات خاصة فى فرنسا الابنة البكر للكاثوليكية وإن حاولوا إخفاءها . وهذه الأدلة تمتد على جبهة عريضة ابتداء من كلمة بل شماتة جورو « لقد عدنا ياصلاح الدين » الشهيرة فى دمشق إلى تسمية العرب فى الجزائر « بالمسلمين » ...

نمط الزحف

النمط التاريخى :

لم يأت الزحف الاستعمارى فى العالم العربى دفعة واحدة ، بل يمكننا بالقياس إلى منطقة شاسعة مثل إفريقيا المدارية أن نقول إن زحف الاستعمار فى العالم العربى كان بطيئا متسكعا . فلم تتحقق له السيطرة على المنطقة إلا فى بحر ٩٠ سنة من ١٨٣٠ « الجزائر » إلى ١٩٢٠ « الهلال الخصيب » . هذا بينما جاء زحفه فى إفريقيا المدارية كاسحا حقا ، فقد تحدد كل شىء هناك فى عقد واحد تقريبا بعد مؤتمر برلين .

والشىء المحقق هنا أن الفارق فى سرعة الزحف بين المنطقتين هو فارق فى نسبة العلاقة بين القوة والمقاومة ، بمعنى أن العالم العربى بحضارته العريقة وتماسكه النسبي لم يكن وسطا «منفذا» للاستعمار بسهوله ، ولهذا تأخرت بدايته فى الأول وخطوته فى التالى . والواقع أن زحف الاستعمار فى العالم العربى تم فى ثلاث موجات رئيسية واضحة التحديد . ولم تنته كل موجة

فى تاريخها تمـاما بل كان لهـا ما بعدها من توسيع أو تعميق أو إقرار Pacification ، بحيث تؤدى نهايات كل موجة إلى طلائع التالية . وبوجه عام كانت كل موجه لاحقة أوسع انتشاراً ونطاقا من سابقتها .

فأما الموجة الأولى ففى الثلاثينات من القرن التاسع عشر ، وفيها وقعت الجزائر فى يد الاستعمار الفرنسى فى ١٨٣٠ فى المغرب وعدن فى يد الاستعمار البريطانى فى ١٨٣٩ فى المشرق . ومنذ ذلك الوقت بدأ الاستعمار البريطانى يزحف بانتظام واطراد من عدن على طول الساحل الجنوبى والشرقى للجزيرة العربية حتى سيطر عليها جميعها حتى الكويت شمالا قبل نهاية القرن .

وجاءت الموجة الثانية فى ثمانينات القرن حين مدت فرنسا نفوذها من الجزائر إلى تونس فى ١٨٨١ ، واحتلت بريطانيا مصر فى ١٨٨٢ . وفى العقدين التاليين استطاعت بريطانيا أن تتخذ من مصر قاعدة للتوسع فى السودان تحت ستار التبعية التركية ، وعند دورة القرن كان قد استقر به تمـاما .

الموجة الثالثة والأخيرة فى العقد الثانى من القرن العشرين قبل وأثناء الحرب الكبرى الأولى . وقد بدأت بانقضاض إيطاليا على ليبيا واقتطاعها من « الدولة العليّـة » العاجزة

فى ١١ — ١٩١٢ . وفى نفس الوقت بدأت فرنسا تتوسع من الجزائر غربا فى مراكش لتنفرد بها من بين مناورات القوى المختلفة ، وتم لها هذا خلال الحرب حتى ١٩١٤. أما فى المشرق العربى فقد كانت هذه الموجة أخطر فترة فى تاريخه فقد سقط أغلبه — كل الهلال الخصيب — للاستعمار دفعة واحدة وذلك كجزء من مساومات الصلح بعد الحرب . فاستولت فرنسا على سوريا ولبنان ، وبريطانيا على فلسطين والأردن والعراق .

النمط الجغرافى :

ماذا تقول هذه القصة التاريخية للجغرافى ؟ أى نمط إقليمى يمكن أن تكشف؟ يمكننا من تحليل النمط التاريخى السابق أن نحدد الملامح الجغرافية الآتية للزحف الاستعمارى . وكل منها جدير أيضا بأن يكشف النقاب عن أساليب الاستعمار .

فأولا : فى كل موجة يبدأ الاستعمار ساحليا ثم يتوسع تدريجيا نحو الداخل . ومن الواضح أن هذه طبيعة الاستعمار البحرى فهو أساساً استعمار ساحلى Marginal control .

ثانيا : فى كل موجه كان الاستعمار يتخذ من أول مستعمرة

له نقطة ارتكاز Tnru – table يتوسع منها دائريا أو خطيا بحسب الظروف .

بعد هذا لعل أبرز وأطرف ملمح جغرافى يكرر نفسه بصورة مثيرة فى كل موجه هو التناظر والسمترية الغربية بين الزحف فى المشرق والمغرب . ففى كل موجة يسقط عضو أو أكثر فى كل من القطاعين معاً بحيث يصبح لدينا هذه الأزواج المتناظرة على الترتيب الزمنى : الجزائر — عدن والجنوب العربى ؛ تونس — مصر والسودان ؛ مراكش وليبيا — الهلال الخصيب .

ثالثا : سيرى أن العالم العربى الإفريقى كان أسبق وقوعا فى مجموعه فى يد الاستعمار من العالم العربى الأسيوى . والجزء الأكبر منه وقع بالفعل فى القرن الماضى ، بينما الجزء الأكبر من العالم العربى الأسيوى المستعمر لم يسقط إلا فى القرن الحالى.

رابعا : لم يفلت من الاستعمار فى العالم العربى إلا قطاع ضئيل نسبيا يقع فى القطاع الآسيوى هو قلب الجزيرة العربية فى السعودية وقلعة اليمن . وسيلاحظ أن هذه أولا مناطق فقيرة فى ذاتها صحراويه أو جبلية ، وثانيا أنها داخلية بعيدة عن مجال واهتمامات الاستعمار البحرى الساحلية .

خامسا : وأخيرا يأخذ توزيع الاستعمار اللاتيني في المغرب ترتيبا مناظرا ومقابلا للأوطان « الأم » على الساحل الشمالي للبحر . فالاستعمار الإسباني في مراكش الخليفية أو الريف يواجه إسبانيا ، والإيطالي في ليبيا يواجه شبه الجزيرة ، بينما في الوسط يقابل النطاق الفرنسي فرنسا في القارة .

أوزان الاستعمار :

لنضع الآن قوى الاستعمار المختلفة في عالمنا العربي في الميزان لنرى أيها أرجح كفة وأيها أوهى وقعاً وأقل ناصرا . والجدول الآتي يبين النسب التي اقتسم بها العالم العربي حتى ما قبل بداية التحرير حيث تشير الأرقام عامة إلى ١٩٥٠ — ١٩٥٢ مع ملاحظة أن أرقام السكان تقريبية .

	المساحة بالكم٢	٪	السكان بالمليون	٪
الإستعمار البريطاني	٤٫٦٥٤٫٧٠٠	٤١٫٦	٣٨	٤٨
« الفرنسي	٢٫٩٣٣٫٠٠٠	٢٦٫٢	٢٧	٣٤
« الايطالي	١٫٧٥٩٫٥٠٠	١٥٫٧	١	١٫٢
« الأسباني	٥٠٫٠٠٠	٠٫٤	١٫٧	١٫٤
الوحدات المستقلة	١٫٧٩٥٫٠٠٠	١٥٫٥	١١٫٥	١٥٫٤

وسيبدو أن نحو سبعة أثمان الوطن والشعب العربى « ٨٥٪ » سقطت ضحية للاستعمار ، وبالأخص للاستعمار البريطانى والفرنسى « الاستعمار الكبير » فهما معاً كانا يسيطران على ثلثى مساحة العالم العربى « ٦٧٫٨٪ » وأكثر من ثلاثة أرباع الشعب العربى « ٨٢٪ » . ولقد كانت بريطانيا بالذات هى القوة الاستعمارية الكبرى فى المنطقة ، فقد سيطرت على نحو نصف السكان ، وأربعة أعشار المساحة . وهى تساوى الاستعمار اللاتينى فى مجموعه من حيث المساحة تقريباً ولكن تفوقه بكثير من حيث السكان . وبينما يتقارب الاستعمار الإسبانى والإيطالى « الاستعمار الصغير » سكاناً ، يختلفان جداً فى المساحة . فالاستعمار الإسبانى شريط كثيف نسبياً ، أما الإيطالى ففيه أعلى نسبة من المساحة إلى السكان . وفيما عدا هذا فيلاحظ أن الاستعمار كان يملك فى المنطقة مساحة تزيد على مساحة أوربا برمتها ، وفيما عدا إسبانيا فإن كلا من القوى الاستعمارية كانت تملك مساحة تبلغ عدة مرات مساحتها هى نفسها ؟

الصراع الاستعماري

انتظم « التكالب على العالم العربى » مجموعة من القوى الأوربية التى قامت بينها صراعات استعمارية متوالية يمكن إيجازها جميعاً فى عملية مستمرة من العزل والتنحية ، والاستعباد والتصفية ، تتم عن طرق متعددة منها الوعد أوالوعيد والتفاهم أو التصادم ، والتبادل أو التقاسم . وهذه المساومات أو المقايضات الاقليمية كانت تخص إمامناطق داخل العالم العربى أو خارجه . وفى هذه الحركة المستمرة يمكننا أن نميز مجموعات متعاقبة من القوى ، تتألف كل مجموعة — كما يتفق — من قوتين متشابهتين فى ظروفهما وفى مصايرهما ، مما يجعل الخطوط الجيوبولتيكية داخل هذا التيار الاستعمارى العام واضحة المعالم . هذه المجموعات هى على الترتيب القوى العتيقة ، ثم القوى العتيدة ثم القوى الوليدة ، وأخيراً القوى الجديدة ويمكننا أن نضيف استكمالا للصورة طبقة خامسة خاصة يمكن أن نسميها القوى الشريدة . وفى هذا الفصل نريد أن نتتبع أدوار تلك القوى وأن نحلل مضارباتها وتضاربها .

القوى العتيقة :

فأما القوى العتيقة فهى إسبانيا والبرتغال ، صاحبتا أقدم امبراطوريات منذ النهضة وهى الامبراطوريات التى تدهورت وتحجرت حتى أصبحت تسمى الآن « امبراطوريات حضرية » « Fossil empires » . ومن المنفق عليه أنها أصبحت أعجز فى حقيقتها من أن تملك امبراطوريات وأن كيانا تها الامبراطورية ليست إلا سخريات سياسية وقد كانت هذه المجموعة أول ماظهر على مسرح الاستعمار فى العالم العربى ، بل الواقع أن استعمارها هنا هو «استعمار متخلف Residual Colonisation» تخلف من بقايا امبراطورياتهم الضخمة فى عصر النهضة والكشوف والباروك ، كما أنه استعمار « محلى » بمعنى أنه يقتصر على رقعة محدودة محددة من العالم العربى هى التى تواجه البلد « الأم » مباشرة . فقد كانت البرتغال منذ هنرى الملاح أول من ظهر على سواحل مراكش واحتلت بعض الجيوب والموانى وظلت فى صراع مستمر حولها مع مراكش الدولة العربية الوحيدة المستقلة حينئذ إلى أن استطاعت هذه استعادتها فى النهاية . وبذلك خرجت البرتغال من الحلبة نهائياً . ولم يبق من آثار ذلك التاريخ إلا الحصاد الهشيم بضعة أسماء أماكن أغلبها من الموانى .

وأما إسبانيا فاستعمارها هنا من مخلفات الشد والجذب بين إسبانيا والمغرب بعد « الاسترداد Reconquista » . فإن الموجة المسيحية التى طردت العرب من الأندلس اقتحمت مراكش من الشمال والغرب واستطاعت أن تقتطع منه الريف فى الشمال وجيب إفنى وطرفايه والصحراء الإسبانية وريو دى أورو فى الغرب . أى أنها فى الحقيقة طوقت مراكش بسلسلة من الجيوب والأسافين الساحلية . وبينما تمثل السلسلة المتوسطية جيوباً ميكروسكوبية مساحة إلا أنها مدن مركزة مكتظة ، وبينما تتألف السلسلة الأطلسية من رقع فسيحة إلا أنها صحارى جرداء مقفرة . وقد اشتد فيما بعد خطر هذه القوة وزادت مطامعها التوسعية وكانت تريد أن تصل مابين كل جيوبها أى أن تبتلع مراكش بجملتها . ولكن أوقفت هذه الأطماع عند حدها بعد دخول « القوى العتيدة » إلى الميدان ممثلة فى فرنسا ، وأكثر من هذا لم يلبث أن أصبح الاستعمار الإسبانى هنا يعيش فى ظل الاستعمار الفرنسى وفى تفاهم متواضع معه — تماما كما أصبح الاستعمار البرتغالى من قبل يعيش فى كل مكان فى نوع من الرعاية والحماية من جانب الاستعمار البريطانى .

القوى العتيدة :

« بالقوى العتيدة » نقصد فرنسا وبريطانيا . وهما أقدم وأخطر دولتين فى أوربا توحيداً وتصنيعا وقوة . ولذلك كانتا أكبر قوى استعمارية فى التاريخ الحديث وتمثلان الاستعمار الكلاسيكى أو الراديكالى ، بكل ما أصبح يعنى من استغلال ورجعية واحتكارات . وكما كانا أكبر منافسين فى الميدان الاستعمارى فى كل العالم ، فكذلك لم يلبث أن نقلا نفوذهما وصراعهما إلى العالم العربى منذ الحملة الفرنسية على مصر . وسنرى فى الواقع أن تاريخ الاستعمار فى العالم العربى سيتحلل أساسا ونهائياً إلى تاريخ الصراع بين هذين «الصديقين اللدودين» بكل معنى الكلمة من ناحية ، وبينهما معاً وبين مجموعات القوى الأخرى من ناحية ثانية .

فرنسا :

نجحت بريطانيا فى الحملة فى إبعاد فرنسا عن الشرق العربى مؤقتا كما نجحت من قبل ومن بعد دائما فى مطاردتها من مستعمراتها عبر البحار . ولكن هزائم فرنسا المتكررة

فى الداخل والخارج منذ سقوط نابليون وعودة الملكية الضعيفة وسياسة المجد وعقدة العظمة الفرنسية المركبة gloire كل أولئك دفعها إلى التعويض بالمغامرة الاستعمارية فى الجزائر ١٨٣٠ . وقد ظلت عملية إخضاع الجزائر مستمرة عدة عقود . ولكنها لم تلبث أن زادت شهيتها الاستعمارية مع الاستعمار — كما يقول المثل الفرنسى « مع الأكل تأتى الشهية I 'appetit vient avec manger » ! ثم تحولت الشهية إلى شهوة . . فراحت تتوسع من الجزائر شرقا وغربا بحجة تأمين ضلوعها الشرقية والغربية فى الجزائر . . . ولكن الدافع المباشر كان هو تطورات ومناورات وتوازنات صراع القوى الأوربية فى القارة والمستعمرات . وقد كانت حركات الوحدة فى ألمانيا وإيطاليا من المحركات غير المباشرة التى دفعت التوسع الفرنسى فى المغرب. فقد بدأت بتونس فى ١٨٨١ كتعويض أولا لهزيمتها التاريخية فى الحرب السبعينية وخسائرها فى الوطن فى الألزاس واللورين من ناحية ، لاسيما أن بسمارك بدهائه وجه نظرها إلى هذا الاتجاه ليخفف من جراح شرفها العسكرى الذى ثلمه بفضل قوته الجديدة التى خلقتها الوحدة الألمانية . ومن ناحية أخرى أسرعت فرنسا إلى تونس استباقاً لإيطاليا التى كانت قد

استكملت هى الأخرى وحدتها وبدأت تتطلع إلى ميدان الاستعمار وخاصة تونس المقابلة جغرافيا والعاجزة عسكرياً.

أما غربا فى مراكش فقد تأخر التوسع الفرنسى حتى ما قبل الحرب الأولى وإن كان النفوذ الفرنسى قد بدأ يتوغل بعمق وقوة من قبل حين كانت مراكش قد أصبحت منذ بداية القرن مطمعا لكل القوى الأوربية تقريباً ومجالا لصراع استعمارى أخطبوطى حقيقة . وقد ظلت مصالح فرنسا هنا متعارضة مع مصالح القوى الأخرى خاصة انجلترا وألمانيا . فانجلترا التى كانت تسيطر على جبل طارق كانت تريد تأمينه من الضفة الأخرى بمنطقة نفوذ فى مراكش . ولهذا ظلت عقبة فى سبيل مشاريع فرنسا حتى تمت بينهما تسوية استعمارية عامة قلبت التصادم إلى تفاهم هو الوفاق الثنائى الشهير Dusl Entente فى ١٩٠٤ وبه اتفق على أن تطلق فرنسا يد بريطانيا فى حوض النيل فى مقابل أن تطلق بريطانيا يد فرنسا فى المغرب . فلم يبق منافس لفرنسا فى مراكش إلا ألمانيا . ولم يدفع فرنسا إلى التحرك العملى أخيرا إلا خطر هذه المنافسة الاستعمارية ومحاولة استباق ألمانيا التى بدأت أطماعها تتبلور نهائيا فى مراكش فلما تغلبت فى حادثة أغادير ١٩١١ لم تتأخر بعدها

عن اجتياح مراكش ١٩١٢ — ١٩١٤ وهكذا كما قيل أفطرت فرنسا بالجزائر وتغذت بتونس وتعشت بمراكش ! وبهذا أصبحت لها السيطرة الكاملة فى المغرب العربى بعد أن انتشرت فيه « كبقعة زيت » متصلة . وأصبحت امبراطوريتها فيه كتلة واحدة لا يقطعها إلا الجيوب الإسبانية الهامشية التى تعيش فى ظلها بينما تظاهرها من الناحية الأخرى امبراطورية لهامترامية فى السودان الغربى .

وفى نفس الوقت الذى ثبتت فرنسا فيه قدمها نهائيا فى المغرب العربى عادت فوضعت القدم الأخرى فى المشرق العربى بعد أن كانت قد فشلت أيام الحملة الفرنسية على مصر وحين لم تـدن ادعاءاتها فى لبنان تزيد عن النفوذ الثقافى والدينى منذ ١٨٦٠ . ذلك أنه كان اتفق الحلفاء أثناء الحرب الأولى فى معاهدة سايكس بيكو السرية على أن تنال فرنسا سوريا ولبنان . وقد تم هذا بالانتداب فى مؤتمر الصلح . وسيلاحظ منذ ذلك الوقت أن الاستعمار الفرنسى فى المشرق العربى سيعيش فى ظل نوع صامت خفيف من الرعاية والتبعية للاستعمار البريطانى السائد فى المنطقة ، وبهذا ياخذ إلى حد ما صورة الاستعمار الإسبانى التابع بالنسبة للاستعمار الفرنسى السائد فى المغرب العربى . كما

سيلاحظ أن نمط الاستعمار الفرنسى فى العالم العربى عامة يتألف من جزيرتين كل منهما موحد متصل Corporate أرضيا ، وكل منهما بيئة متوسطية ، وكل الفرق أن واحدة تصغير للثانية .

بريطانيا :

أما القوة العتيدة الأخرى والكبرى فهى بريطانيا . وقد تفتحت أطماعها على أهمية المنطقة منذ فتحت الحملة الفرنسية على مصر عينيها على المغزى الاستراتيجى للموقع . فمنذ هذه اللحظة بدأت سياسة «طريق الهند» «وشريان الامبراطورية» التى تقوم على استبعاد كل منافسة استعمارية فى المنطقة واحتكارها لنفسها سياسيا . وبدأت تسعى إلى مواضع القوة منذ حملة فريزر الفاشلة على مصر ١٨٠٧ ومنذ حاولت طرد النفوذ الفرنسى من مصر أيام محمد على وبالضغط على الآستانة وإضعاف قوة مصر الذاتية بانتظام . ولكن أول سيطرة استعمارية لها تحققت فى عدن ١٨٣٩ ، ومنها أخذت تؤمن الجناح الغربى للهند بالزحف على طول الساحل الجنوبى والشرقى للجزيرة العربية دون أن تلقى منافسة خطيرة بعد أن كانت قد استأصلت النفوذ البرتغالى القديم من المحيط الهندى حتى تحول إلى « بحيرة بريطانية » .

أما من جهة البحر المتوسط فقد كانت المنافسة الفرنسية أشد وبلغت القمة مع حفر فرنسا لقناة السويس . فقد حاربت بريطانيا المشروع بكل قواها حتى لا يتحول « عنق الزجاجة » فى الامبراطورية إلى « عنق الرقبة » . ولكن حين تغلبت فرنسا وشقت القناة حولت بريطانيا استراتيجيتها إلى السيطرة عليها — على مصر . وكانت أول خطوة هى صفقة أسهم القناة البخسة التى جعلت الموقف أشبه بمن ظل يكدح ويكدس ثروة العمر « فرنسا » ثم تصادف عابر سبيل فتعثر فيها والتقطها بلا عناء « إنجترا » ! ومنذئذ بدأ التدخل والنفوذ المشترك الفرنسى — الانجيزى بدعوى الدفاع على المصالح والأموال المشتركة . ثم كان هذا ذريعة التدخل المسلح والاحتلال الاستعمارى الذى انفردت به انجلترا عند أول فرصة عرضت فى ١٨٨٢ . هنا بدأ النفوذ الفرنسى يتضاءل وينكمش حتى كان التفاهم الثنائى ١٩٠٤ فانسحبت نهائيا .

وكما توسعت فرنسا من الجزائر شرقا وغربا توسعت انجلترا جنوبا فى حوض النيل حيث استولت على السودان باسم مصر العثمانية وتحت اسم الحكم الثنائى Condominium الصورى الذى وصف — سخرية وتهكما — بأنه يقوم على أساس :

«fifty — fifty basls; fifty horses & fifty rabbits»

وقد تم إخضاع أو « استرداد » السودان فى ١٨٨٩ بعد أن اصطدمت بريطانيا مع فرنسا مرة ثانية . بريطانيا فى زحفها على المحور الطولى للقارة الإفريقية وفرنسا فى زحفها على المحور العرضى لسودان السفانا . وكان الصدام فى « حادثة فاشودة » ، وكما ستنسحب ألمانيا أمام فرنسا فى حادثة أغادير فيما بعد ، انسحبت فرنسا أمام بريطانيا فى حادثة فاشودة وتكفل «الوفاق الثنائى » بالتسوية النهائية فيما بعد . وبهذا تم لبريطانيا السيطرة على العالم العربى النيلى وأصبح البحر الأحمر على ضلوعه الشرقية بحيرة — بالأحرى بركة — بريطانية بينما اتصلت الامبراطورية فى الشمال بالامبراطورية فى الجنوب — « من القاهرة حتى الكاب » — .

وقد جاءت موجة التوسع البريطانى بعد ذلك مع الحرب الأولى واتجهت هذه المرة اتجاها آسيويا إلى الشمال . وكانت بريطانيا قد اتفقت مع حلفائها على اقتسام الامبراطورية التركية فى معاهدة سايكس بيكو السرية ١٩١٥ بحيث تنال هى الانتداب على فلسطين وشرق الأردن والعراق ، وهى مناطق كانت قد بدأت المنافسات الاستعمارية تتصادم عليها لا سيما من جانب

ألمانيا حيث نجحت قبل الحرب فى التوغل الاقتصادى والسياسى فى العراق خاصة . وكما نبهت الحملة الفرنسية على مصر من قبل نظر بريطانيا إلى خطورة البحر الأحمر بالنسبة للامبراطورية ، فإن التوغل الألمانى فى العراق وجه أنظارها إلى خطورة الخليج العربى بالنسبة للهند . ولكن جاءت الحرب لتحطم كل مشاريع ألمانيا فى المنطقة وبهذا انفردت بريطانيا بهذه الوحدات بعد الحرب . وبهذا أيضا أصبح لها خط دفاع عميق للقناة فى فلسطين أولاً وجسر أرضى متصل عبر « الهلال الخصيب » بين رأس البحر الأحمر ورأس الخليج الفارسى أى بين البحر المتوسط والمندى — بمعنى آخر أصبح لها « الأوفر لاند روت » ، وأكثر من هذا تحقق لها نظريا محور كامل يبدأ من الكاب وينتهى إلى البصرة !

وبهذه الصورة أيضا أصبح المشرق العربى أساسا حلقة من الاستعمار البريطانى لا يتوسطها إلا جزيرة هزيلة مستقلة فى السعودية واليمن ، بينما لا يعيش الاستعمار الفرنسى على ضلوعها الشمالية إلا برضائه وإرادته . وبهذا أصبحت بريطانيا القوة المسيطرة فى الشرق الأوسط أو المشرق العربى كما أصبحت فرنسا القوة المسيطرة فى الشرق الأدنى أو المغرب العربى .

القوى الوليدة :

أما القوى الاستعمارية « الوليدة » فهى تلك التى لم تصبح دولا موحدة إلا بالأمس فقط . وهذا يعنى ألمانيا وإيطاليا اللتين تأخر توحيدهما حتى ثمانينات القرن الماضى ، كما تأخر فيهما بدء الانقلاب الصناعى حتى منتصف القرن . ولهذا حين خرجت هذه القوى إلى ميدان الاستعمار كان قد فاتها القطار ولم تجد على مائدة الاستعمار غير الفتات من ناحية ، ومن ناحية أخرى كانت أضعف سياسيا وماديا من القوى العتيدة السبّاقة بحيث لا تضمن النجاح فى الاصطدام بها . ولهذا كان نصيبها الاستعمارى فى النهاية ضئيلا وكان عليها أن تحل مشاكلها الاقتصادية داخليا ومحليا ..

ومن هنا بينما استطاعت القوى الاستعمارية العتيدة أن تتباهى داخليا بالديمقراطية التى حققتها على حساب المستعمرات ستجد الاتجاهات الفاشستية والنازية بيئة صالحة لها فى القوى الاستعمارية الوليدة . وكان هذا طابعها ودوافعها حين دخلت ميدان العالم العربى . وكان معنى دخولها متأخرة أنها جاءت لترث القوى العتيدة ومن ثم كان لابد أن تلتحم معها . ولهذا كانت أكبر تحد جابه القوى الاستعمارية العتيدة التى جمعتها وحدة المصالح

ضدها بسرعة من هنا تحول الصراع السياسى إلى لون من الصراع الاستعمارى تمثل فى حربين عالميين لم يعرف العالم من قبل لهما مثيلا . ولكنها لم تنجح فى النهاية ولهذا أخرجت من الميدان الاستعمارى مبكرة مثلما دخلته متأخرة .

ألمانيا :

كانت ألمانيا هى الأسبق إلى الميدان . وظهرت أطماعها فى العالم العربى فى أقصى هامشيه غربا وشرقا : غربا فى مراكش وشرقا فى العراق والشام . وفى الأولى اصطدمت بفرنسا أساسا وفى الثانية بانجلترا أساسا . ففى الأولى بدأت خططها مع بداية القرن العشرين حين أصبحت طرفا رئيسيا فى أخطبوط الصراع الدولى حول مراكش المستقلة . وتحدد الصراع خاصة بين فرنسا وألمانيا منذ أن أطلق الاتفاق الثنائى يدفرنسا فى المغرب. فحدث الصدام النهائى بينهما فى حادثة أغادير ١٩١١ التى كانت « فاشودة مراكش » وفيها انسحبت ألمانيا القيصرية إزاء قوة « الحلفاء » . وانتهى الوعيد إلى وعد : فقد اتفق على أن تتخلى ألمانيا عن أطماعها نهائيا فى مراكش فى مقابل تعويض

إقليمى لها فى الكمرون المدارية . وهكذا استبعدت ألمانيا من المغرب العربى .

أما فى المشرق فكانت ألمانيا منذ أواخر القرن الماضى قد تغلغلت بنفوذها فى الامبراطورية العثمانية بصورة حاسمة وكانت مشروعات التوسع الألمانى فى المشرق العربى جزءا من خطة كبرى « للزحف شرقا Drang nach Ostn » للوصول إلى الخليج العربى على عمود فقرى هو سكة حديد برلين — بغداد أو بالأحرى همبورج — الكويت . وكانت تهدف إلى مد الخط إلى الشام وبذلك تطوق الهلال الخصيب بكماشة ذات فكين ، وتهدد طرق مواصلات انجلترا إلى الهند . وكان لا بد أن تصطدم منذ البداية مع انجلترا وبدأت الحرب الدبلوماسية فى اسطنبول وكانت كفة ألمانيا فيها راجحة حتى حصلت على امتياز إنشاء السكة الحديد ومعه امتياز للبحث عن البترول الذى بدأ وجوده يتكشف من قبل فى لواءى الموصل وبغداد . ولكن قيام الحرب الأولى مباشرة — مع وقوف تركيا فى صف دول الوسط — وضع حدا للتوسع الألمانى فقد سارعت بريطانيا بغزو المنطقة واحتلالها ثم أخيرا وبعد الحرب باستعمارها .

وهكذا بدا أن ألمانيا خرجت إلى الأبد من العالم العربى .

« ولكنها عادت بعد ¼ قرن فى الحرب الثانية عن طريق حليفتها إيطاليا حيث سيطرت على تونس وليبيا ومناطق حكومه ڤيشى وهددت مصر شرقا والمغرب غربا ملوحة العالم العربى كله طوال الوقت بأنها جاءت لتحرره من « الاستعمار العتيد » — تماما كما فعل هذا من قبل كاذبا حين وعد بتحرير العرب من الاستعمار التركى إذ هم ساعدوه فى الحرب الأولى . ولكن العلمين وضعت نهاية هذه المغامرة . ولهذا يمكن أن نلخص دور ألمانيا فى الصراع حول العالم العربى فى أنه تأرجح ما بين أمل لا عمل فى جانب ، وبين وجود بالوكالة by proxy لا بالأصالة فى جانب آخر . وكان دورها أصغر دور لعبته أى واحدة من القوى — حتى دور إسبانيا يفوقه كثيرا . . .

إيطاليا :

وإذا كان نشاط ألمانيا قد ارتبط بأقصى طرفى العالم العربى ، فإن إيطاليا على العكس ارتبط وجودها وأطماعها بقلب العالم العربى . فمنذ وحدتها وهى تطمع فى تونس ، وتمكنت أن تمرق بنفوذها ومصالحها السياسية والاقتصادية إليها ونمت لنفسها فيها جالية ضخمة ظلت بعد ذلك طويلا — وأثناء الاستعمار

الفرنسي — أكبر عدداً ونفوذاً من الجالية الفرنسية . ولكن فرنسا كانت أسبق إلى التحرك واجتاحت تونس . وفي الحرب الثانية سيطرت إيطاليا مع ألمانيا على تونس مؤقتاً .

وحين بدأت إيطاليا تتحرك لم يكن قد تبقى في إفريقيا العربية إلا الفتات الاستعماري : ليبيا العثمانية التي اغتصبتها في ١٩١١ — ١٩١٢ أثناء أزمة تركيا في حرب البلقان . وقد استطاعت في النهاية أن تخضع برقة وطرابلس ثم تتوغل جنوبا إلى الكفرة وفزان . ولكن ليبيا لم تكن أكثر من « صندوق من الرمال Box of sand » كما عبر بعد ذلك موسوليني الذي بدا أيامه أن قوة إيطاليا السياسية قد تعاظمت لدرجة تهدد القوى الاستعمارية العتيدة انجلترا في مصر شرقا وفرنسا في تونس غربا . وكانت هذه الفترة من لمعان القوة الإيطالية في العالم العربي أشبه بفترة لمعان وتوهج القوة الألمانية فيه قبل الحرب الأولى . وكما كان للأولى مشروع « الزحف شرقا » وضعت إيطاليا الفاشستية مشروعاً توسعياً استعماريا على نطاق ضخم على أقل تقدير .

هذا المشروع يبدأ من ليبيا ويمتد على طول قاطع عبر العالم العربي ينتهي عند اليمن واصلا بذلك بين إيطاليا الأم من ناحية

وأفريقيـا الشرقية الإيطالية فى أرتريا والحبشة والصومال من الناحية الأخرى . وكان المشروع يعنى بذلك انتزاع تونس من فرنسا ومصر والسودان من بريطانيا والاستيلاء على اليمن المستقلة ، التى كان النفوذ الإيطالى قد توغل فيها جداً، وتحويلها إلى ألبانيا أخرى . . . وبذلك كله يعود البحر المتوسط بالنسبة لإيطاليا « بحرنا Mare No:to » كما كان أيام الرومان « Mare nostrum » يعود « بحر الروم » كما كان يسميه العرب ، ويتحول البحر الأحمر إلى بحيرة إيطالية ، ويصبح لإيطاليا « امبراطورية إسلامية » « كذا ! » تفصل الاستعمار البريطانى فى المشرق العربى عن الفرنسى فى المغرب . . .

وقد نجحت تهديدات إيطاليا فى تخويف فرنسا فى تونس حيث كان نفوذها من قبل شوكة فى جنب فرنسا ، وظهر هذا فى تنازلات فرنسا فى اتفاقية موسولينى ـ لاڤال ١٩٣٥ التى اعترفت للجالية الإيطالية فى تونس بوضع خاص . كما انتزعت إيطاليا امتيازات خاصة من بريطانيا فى مصر . ولـكن كل هذه المشاريع المسرفة تبددت بصورة ساخرة فى الحرب الثانية حين انكشف عجز إيطاليا وخواؤها . وبعد الحرب ورثت القوى العتيدة إيطاليا فى ليبيا مؤقتاً حتى تم التحرير النهائى . . .

القوى الجديدة :

« القوى الجديدة » نقصد بها تلك القوى التى ظهرت متأخرة على مسرح الصراع السياسى فى العالم العربى دون أن تكون دولا جديدة فى ذاتها كألمانيا وإيطاليا أو لها نفوذ سابق كانجلترا وفرنسا . وهذا ينصرف بالطبع إلى قوتى الولايات المتحدة وروسيا السوفيتية . وكما امتازت سلاسل القوى السابقة بطوابع ذاتية واستعمارية معينة ، فكذلك تمتاز هذه القوى الجديدة بأنها تشترك فى ملامح خاصة . فكلاهما من القوى « الماموث » الجبارة وإليهما آلت زعامة العالم التى كانت معقودة من قبل للقوى العتيدة ، وكلاهما بلا تاريخ استعمارى قوى أو محدد ، وكلاهما كان فى عزلة طويلة اختيارية أو جبرية ثم خرج فجأة إلى العالم الخارجي وقد أغلق باب الاستعمار ، وكلاهما — ربما للسبب السابق مباشرة — ادعى المثالية السياسية فى البداية وتبنى مثلا عليا ضد—استعمارية ولم يسع إلى الاستعمار السياسى السافر ، ولكن لم يلبث أن ارتبط نشاطه بعد ذلك بالوان مقنعة من النفوذ .

ويمكن مباشرة أن نقول إن الطابع الأمريكى ارتبط

« بالاستعمار الاقتصادى » بدلا من الاستعمار السياسى ، بينما ارتبط الطابع السوفيتى بوضوح بما يمكن أن نسميه « الاستعمار المذهبى » أو الأيديولوجى . وكان من الطبيعى أن تصطدم القوى الجديدة مع القوى العتيدة بالضرورة ، وأن يكون نشاطها فى المنطقة على حسابها كما حدث دائماً مع القوى الأخرى . ولكن الفارق الجوهرى هذه المرة هو أن القوتين الجديدتين لا يجمع بينهما مصالح مشتركة بل عداء رهيب أولا ، وأن أحد الطرفين حليف طبيعى للقوى العتيدة ثانيا . ومن هذا الفارق بالذات ستنبع كل العوامل التى حددت مصير الاستعمار الأوربى كله فى العالم العربى .

الاتحاد السوفيتى :

لعل الحقيقة الجغرافية الأولى فى علاقة الاتحاد السوفيتى بالعالم العربى هى أنه القوة الأوربية الوحيدة التى تكاد تتاخم العالم العربى أرضيا ، ولو أن هناك برزخا أجنبيا فاصلا . ومنذ القيصرية ومنذ سياسة الوصول إلى المياه الدافئة وللروسيا أطماع فى منطقة الشرق الأوسط تشمل المشرق العربى خاصة العراق والخليج العربى بل لقد أعلنت حينا أن المنطقة من كردستان

إلى الخليج هى « قناة السويس » بالنسبة لها . ولكنها لم تستطع أن تنفذ إلى المنطقة العربية حتى فى معاهدة سايكس بيكو السرية بين حلفاء الحرب الأولى ، فقد كان نصيبها فى التركة العثمانية يقع خارج العالم العربى . وهكذا لم يتجدد نشاطها حول المنطقة الا بعد خروجها من عزلتها إلى الحرب الثانية وما بعدها.

ولكنها لم تلبث أن وجدت نفسها إزاء عملية « احتواء containmrt » أو تطويق « encirclement » من جانب الغرب . وقد حاولت أن تضع قدما فى المنطقة أثناء أزمة مصير الاستعمار الإيطالى فى ليبيا فاقترحت لنفسها الوصاية على طرابلس مقابل الوصاية البريطانية على برقة والفرنسية على فزان . ولكن هذا وحده كان كفيلا بأن يقترح الغرب فور الاستقلال التام لليبيا ليس حباً فيها ولكن كراهية فى الاتحاد ! ومصالح الاتحاد الواضحة فى المنطقة هى على الأقل سلبية : أعنى مصلحة حرمان denial measure حرمان الغرب من المنطقة كقاعدة استراتيجية حاسمة تهدده مباشرة وكخزان لأهم سلعة استراتيجية فى العالم — البترول .

وقد حاول الاتحاد التسلل إلى المشرق العربى بالتلويح بمبادىء الحرية والتحرير وبالمساعدات الاقتصادية والفنية والعسكرية

غير المشروطة ولكن أيضاً بالعمل السفلى الهدام . ولكن المنطقة رفضت الاستعمار المذهبي وقبلت المساعدات جامعة بينهما فى فلسفة جديدة هى « الحياد الإيجابى » . وبهذا قامت علاقات بين الطرفين أساسها الأول والاخير ، والمعلن والمشروط ، هو المساواة التامة واحترام الند للند ، وعدم التدخل المتبادل .

الولايات المتحدة :

أما الولايات المتحدة فبدأ أول اهتمام لها جدياً بالمنطقة بعد الحرب الكبرى الأولى ولأغراض اقتصادية هى المشاركة فى بتروله الذى بدأت رائحته تفوح فى المنطقة . وكانت بالفعل قد حاولت ذلك قبل الحرب ولكن بريطانيا طاردتها حتى عادت بعد الحرب وفرضت نفسها شريكا فى بترول العراق وارثة بذلك حصة ألمانيا المنهزمة . ولكن دورها الاقتصادى البترولى الحاسم بدأ قبل الحرب الثانية حين أحرزت وحدها امتياز بترول السعودية . وبدأ نفوذها السياسى والاقتصادى فى المنطقة ينافس النفوذ البريطانى بقوة وجاءت الحرب الثانية فأكدت عملية إدالة الزعامة من الامبراطورية العجوز إلى جمهورية العالم الجديد الفتية . واستطاعت أن تغزو احتكار انجلترا لبترول شياخات

الخليج فاصبحت شريكة مناصفة فى الكويت وبعد ذلك فى ليبيا وانفردت وحدها ببترول السعودية وامتدت شبكة مصالحها البترولية لتغطى أغلب وحدات المنطقة بحثاً أو أنابيب .

والنقطة المهمة هنا أن الولايات المتحدة بدأت مصالحها فى العالم العربى اقتصادية أساساً ، ولكن تطوراً هاماً حدث بعد ذلك منذ الحرب الثانية . فإن صراع المعسكرين منذ ذلك الحين جعل للولايات المتحدة فجاة مصالح استراتيجية خالصة فى المنطقة كحلقة فى سلسلة « احتواء وتطويق » الاتحاد السوفيتى ، وذلك بالإضافة إلى المصالح الاقتصادية البترولية « رغم العنصر الاستراتيجى فيها أصلا » .

وقد بدأت الولايات المتحدة برصيد ضخم من التقدير وحسن القبول من جانب المنطقة كامل مرموق قد يساهم فى تحريرها ولكنها رغم صراعها الصامت مع بريطانيا لترثها اقتصاديا فى المنطقة ، إلا أن اهتمام الأولى بالصراع مع الشرق قد حدد مصالحها مع بريطانيا سياسياً . ولهذا كانت خيبة أمل المنطقة بسرعة واعتبرت قوة استعمارية بالأمر الواقع إن لم يكن بالشكل القانونى .

وقد انعكس هذا كله فى محاولات فرض مشاريع الأحلاف

ومنظمات الدفاع على المنطقة وفى نظرية « الفراغ » التى زعمته وأرادت أن تملأه ، كما انعكست فى فشل هذه الخطط على صخرة الحياد الإيجابى وعدم الانحياز . . على أنها إذا كانت قد فشلت فى هذه المشروعات فقد نجحت فى «استئجار» سلسلة من القواعد العسكرية تمتد على جبهة عريضة تبدأ من « حاملة الطائرات » الأمريكية مراكش « المغرب » وقواعد هويلس فى طرابلس والظهران فى السعودية . ومعنى هذا كله أن اهتمام الولايات المتحدة بالمنطقة قد ازدوج فلم يعد كما كان حتى بعد الحرب الثانية قاصراً على الوضع فحسب ، بل امتد إلى الموقع أيضاً . أى أضيف إلى أهداف الاستعمار الاقتصادى أطماع النفوذ السياسى .

وهنا سنرى أن هذا التطور هو عكس تطور المصالح الاستعمارية البريطانية فى المنطقة . فقد بدأت بريطانيا اهتمامها هنا بالموقع الاستراتيجى أساساً كطريق الهند فكانت كل الاعتبارات الأخرى تأتى فى المرتبة التالية ، ثم بعد ضياع الهند ثم السويس تضاءلت مصالح بريطانيا الاستراتيجية البحتة فى المنطقة ولكن كانت ثروة البترول قد أصبحت هى المغناطيس الجديد والاعتبار الأول فى استماتة بريطانيا . أى أن أطماعها وإن بدأت كموقع فإنها انتهت إلى أطماع فى الموضع .

القوى الشريدة :

« القوى الشريدة » طبقة خاصة من طبقات الاستعمار أدنى طبقاته بل أحقرها وأبعدها عن مفهوم القوى الحقيقى . ونحن نقصد بها هنا الاستعمار الصهيونى الذى لا يمثل دولة معينة بل يبدأ من الصهيونية العالمية ويعتبر « استعماراً تابعاً » وظلا خاصة للاستعمار العتيد وإلى حد كبير للاستعمار الجديد . وإذا كانت طبقات القوى العتيدة هى كالفقريات فى عالم الاستعمار فإن هذه القوة الشريدة هى لا فقرياته بل هى أميبا الاستعمار الملامية . . . وقد كان الاستعمار البريطانى هو الذى خلقه قانونياً وفعلياً : قانونياً بوعد بلفور ١٩١٧ بوطن قومى لليهود فى فلسطين ، وفعلياً بالتواطؤ مع الحركة الصهيونية على زرع اليهود وتغلغلهم فى فلسطين الانتدابية ثم على تسليمها لهم قبل انتهاء الانتداب فى ١٩٤٨ . ولا يلخص هذا الموقف الخائن اللا أخلاقى من بدايته إلى نهايته كما تلخصه كلمة بليغة موجزة قالها عبد الناصر فذهبت مثلا « لقـد أعطى من لا يملك من لا يستحق » . وبعد بريطانيا كفلتها الولايات المتحدة بالمساعدات المادية الحيوية والأدبية ، وتبعتهـا فى ذلك فرنسا . ولهـذا صح أن نقول

إن إسرائيل ولدت ابناً غير شرعى لبريطانيا ، ونمت لقيطاً لأمريكا وشبت ربيباً لفرنسا . ولا يعد الاستعمار الصهيونى الشريد إسرائيل الحالية إلا « إسرائيل الصغرى » لأنه يحلم « بإسرائيل الكبرى » التى تمتد من النيل إلى الفرات . .

ولكن الاستعمار الصهيونى فى الحقيقة ليس إلا نبتاً اصطناعياً بحتاً لو نزعت عنه صوبته الزجاجية — الاستعمار العتيد والجديد — لمات مختنقاً فى مناخ العالم العربى القومى . فهو لا يعيش إلا على الحقن الاصطناعية ولا يتنفس إلا داخل غرفة أوكسجين دائماً . وإسرائيل حالياً تعيش فى حالة حصار جغرافى وعسكرى وهيدرولوجى واقتصادى شبه كامل من جانب العرب . حصار جغرافى لأنها لا تعدو أن تكون إسفيناً فى جسم العالم العربى . وحصار عسكرى لأنها — وحدة أو لا وحدة بين العرب — تظل « كالبندقة فى الكسارة » فى التحليل الأخير . أما هيدرولوجيا فإن العرب يسيطرون على منابع المجارى التى تدخل إسرائيل من كل الجهات وأى الجهات ، والمشروع العربى لنهر الأردن هو « وسيلة حرمان » محققة للدخيل الطفيلى من الماء . أما الحصار الاقتصادى فيتمثل فى المقاطعة المحكمة داخل العالم العربى وخارجه كلما أمكن :

وتحاول إسرائيل أن تخرج من هذا الحصار المتعدد الأطراف سواء بالارتماء فى أحضان الاستعمار الكبير والعمل كعميل له وقاعدة ارتكاز فى المنطقة أو بسرقة مياه الأردن أو بالتسلل إلى أفريقيا . وفى هذا المجال الأخير تحاول إسرائيل فى الحقيقة — كما حاول الاستعمار البرتغالى قديماً — أن تطوق العرب من الخلف وأن تحاصرها من الباب الخلفى ، ولكن هيهات .. لا جدوى !



أنواع الاستعمار

ليس من السهل أن نصنّف الاستعمار فى العالم العربى بحسب التقسيم الثلاثى المعروف من استراتيجى واستغلالى وسكنى ، لأن الاستعمارى غالبا متعدد الأغراض muiti — purpose . فالبعد الاستغلالى عادة قاسم مشترك أعظم ، وإنما قد يطفو على السطح فى حالة أو يرقد تحته فى حالة أخرى . كما أن اهتمامات الاستعمار قد تتطور من غرض إلى غرض بتطور الظروف العالمية أو المحلية . والواقع أن نوع الاستعمار قد تغير فعلا فى كثير من الدول العربية خاصة فى سنيه الأخيرة فيها . ولا يتحدد لون الاستعمار بالبيئة الطبيعية فقط رغم أن هذا ضابط فيصل فى النهاية ، بل وبمذهب الاستعمار كذلك فالاستعمار اللاتينى بوجه عام إذ يجنح إلى الحكم المباشر يوحى دائما — أو يمهد — للاستعمار السكنى — أما الاستعمار السكسونى « الانطوائى » صاحب الحكم غير المباشر فينبغى نظريا ألا يشجع على الاستعمار السكنى كثيرا ، وهو ما نجده بالفعل فى حالة العالم العربى وعلى هذه الأسس العامة نوزع الآن أنواع الاستعمار فى المنطقة .

الاستعمار الاستراتيجي :

وظيفة مباشرة للموقع الجغرافي ومرتبط أساسا بالمواقع الاستراتيجية . وهو أشد ما يكون التصاقا بالاستعمار البريطاني أولا وبالمشرق العربي ثانيا . فقد بدأ كل الاستعمار البريطاني في المنطقة استراتيجيا منذ عدن والمحميات والخليج إلى مصر والسودان ثم الهلال الخصيب . فكل هذه طرق الامبراطورية ومفاتيحها بل شرايينها وخط الحياة life — line . والجانب الاستراتيجي في الاستعمار أبرز ما يكون بالقطع في حالة مصر. فقد أتى الاستعمار البريطاني هنا نتيجة أولا ثم مدعما ثانيا لسابقه في الهند . ولئن صح أن يقال إن القناة جنت على مصر ، فإنها قد جنت في هذا المعني أيضا على بقية المشرق العربي بل والهند — فلطالما استخدمت القناة لو أد التحرر في كل هذه المناطق على وجه السرعة والكفاءة . إلا أننا ينبغي ألا ننسى — في حدود هذ المنطق — أن الهند هي أصلاً التي جنت على منطقة الشرق العربي ! ولكن هـذا وذاك ليس إلا منطق الاستعمار في الحقيقة فهو وحده الذى جنى على الجميع . . . وقد حددت القناة إلى حد بعيد مصير حربين عالميتين ، كما أن على

أرض مصر كانت الموقعة الفاصلة فى تحويل مجرى الحرب الثانية:
لقد تحول الموقع إلى موقعة . . .

أما فلسطين فهى برمتها خط الدفاع الأول عن القناة وليست الأردن إلا ظهير فلسطين وجسرا أرضيا إلى العراق والجانب الاستراتيجى للاستعمار فى السودان واضح فى موقعه كظهير لمصر أولا ونافذة على البحر الأحمر ثانيا وكبوابة تفتح على كتلة الاستعمار البريطانى فى شرق إفريقيا ثالثا ، هذا عدا أن سيطرته على أعالى النيل يعطى أداة خطيرة للضغط السياسى على مصر . أما عدن فهى قلعة استراتيجية بحته : « جبل طارق البحر الأحمر » ،والمحميات لها ظاهر وظهير ، كما أنها ودويلات الخليج مشارف الهند .

وإذا انتقلنا إلى الاستعمار اللاتينى فى المغرب العربى وجدنا العنصر الاستراتيجى فيه أقل خطرا ويتراجع عن المرتبة الأولى لأغراض أخر . ومع ذلك فقد كان الاستعمار الإيطالى لليبيا يبرر نفسه بعد فشله عمرانيا وسكانيا بانه موطىء قدم وقاعدة أرضية لامبراطوريته المأمولة . . و فى الاستعمار الفرنسى فى المغرب كان قطاع الصحراء الكبرى ظهيرا لمستعمراته فى غرب إفريقيا ومجالا لامبراطورية عسكرية فرنسية مترامية . وفى تونس

تكشف الهدف الاستراتيجى بوضوح حين أعلن جيل فرى Jules ferry قولته المشهورة: «إنما أخذت تونس من أجل بنزرت:
« G'est pour Bizerte qyue j'ai pris la Tunisie ».

ولكن الاستعمار الاستراتيجى يتطور — لأن مصيره مرتبط إلى حد بعيد بالتطورات الاستراتيجية العالمية. ومنذ الحرب الأخيرة والاستراتيجية الذرية الكوكبية الجديدة قد قلبت تماما فكرة الموقع الجغرافى والنقط البحرية والبرية. وإذا كان الاستعمار البريطانى يستميت اليوم فى التمسك ببقاياه فى العالم العربى فليس فى الحقيقة من أجل الموقع البحت، وإنما من أجل طفرة غير منظورة أعطت للمنطقة وزنا جديدا هى البترول وإذا بدا هذا الهدف استعمارا استراتيجيا فذلك فقط من حيث أن البترول سلعة استراتيجية. ولذلك فالتطور هنا واضح من استعمار استراتيجى إلى استغلالى، أو هو على الأقل يجمع الآن بين الغرضين. وبالمثل حدث للاستعمار الفرنسى فى صحراء الجزائر، فمنذ ظهر بترولها استمات الاستعمار الفرنسى فى البقاء وغلب اللون الاستغلالى على الاستراتيجى خاصة بعد أن ضاعت امبراطورية السودان والصحراء.

الاستعمار الاستغلالى :

كان الهدف الاستغلالى للموارد والخامات والأسواق جزءاً لا يتجزأ من دوافع الاستعمار فى أجزاء العالم العربى رغم أنه كان يتوارى خلف واجهة استراتيجية أو سكنية هنا وهناك ، فهو عنصر ضمنى فى مركب الاستعمار . وقد أفاد الاستعمار فى هذا المجال من التخلف الاقتصادى للمنطقة ، وحاول كل جهده أن يبقى على هذا التخلف وأن يربط الاقتصاد القومى بعجلته . ولجأ لذلك إلى محاربة التصنيع وإلى فرض التخصص الزراعى الضيق فى المحاصيل التجارية فى شكل المحصول الواحد والانتاج فى الخامات الزراعية أو المعدنية . وحينما وجدنا الاستعمار يحتكر لنفسه الحرف الثانية والثالثة « الصناعة والتجارة » ويفرض على المستعمرة الحرف الأولية « الزراعة والتعدين » ، وحينما وجدنا أن تجارة المستعمرة الخارجية تتميز بخصائص « التجارة الاستعمارية » التى تميز كل المستعمرات من هيكل متخلف معوج ، مرتبط كلية لمتروبول ، ويعانى من العجز المزمن ، فحينئذ لا شك فى أن العنصر الاستغلالى بعد أساسى فى أبعاد الاستعمار .

وبهذا المفهوم كان العالم العربي مزرعة وحقلا للقوى الاستعمارية من ناحية وسوقا احتكارية لصناعاتها هي من ناحية أخرى . ورغم انخفاض القدرة الشرائية للمنطقة فقد كانت السياسة الاحتكارية عاملا معوضا . ولقد كانت التجارة الخارجية لكل الدول العربية مرتبطة ارتباطا كاملا في الصادر والوارد بالقوى المتروبوليتانية . لهذا كله فالاستثمارات والمكاسب الاستعمارية كانت عنصرا هاما حتى في أشد الوحدات فقرا ماديا. وينبغي ألا يخدعنا اللون الاستراتيجي الغالب على الاستعمار في مصر مثلا عن هذه الحقيقة ، وقد كانت قناة السويس وحدها من الناحية التجارية البحته تغل للاستعمار بضع عشرات من ملايين الجنيهات سنويا . ومثل هذا يقال عن السودان والعراق ولا عبرة هنا بأن ليبيا مثلا كانت عبئا ماليا على الاستعمار الإيطالي لأن هذه كانت تجربة دعائية ضد الطبيعة .

والظاهرة الهامة بعد هذا هي أن الجانب الاستراتيجي بعد أن تضاءل في ميزان الاستعمار في العقد الأخير قد كشف ضخامة الجانب الاستغلالي الكامن فيه في مناطق البترول . فمثلا قد قدر أن بريطانيا وحدها تخرج بربح صاف قدره ١٠٠٠ مليون جنيه في السنة من بترول الشرق الأوسط ! فالاستعمار الاستغلالي

إذا لم يكن قد ورث الاستعمار الاستراتيجى فى بعض الحالات فقد برز إلى المقدمة فى أغلبها . وفى الجزائر كان حصوله على امتياز البترول شرطا أساسيا فى الخروج ومن قبل كان يشتط أكثر ايشترط « الاستقلال داخل الترابط Independence Within interdependence » وقد كان الهدف الاستغلالى هو أساس الاستعمار الاقتصادى الأمريكى فى المنطقة . وهنا سنلاحظ أن الاستعمار الاستغلالى بالذات يمكن أن يوجد دون استعمار سياسى شكلى . إنه أقرب أنواع الاستعمار إلى مايسمى بالاستعمار الجديد neo - colonialism هو لون من الاستعمار الخفىء crypto - colonialism ألصق بسياسة القوى الاستعمارية الأخيرة سياسة « إرحل لتبقى Quit to stay » التى تبيع الاستعمار السياسى وتشترى الاستعمار الاقتصادى .

وهذا التطور الجديد تساعد عليه طبيعة الثروة الجديدة البترول . فاستعمار البترول ليس استعمارا استراتيجيا بمعنى الموقع الجغرافى والمواقع العسكرية ، ولكنه فى نفس الوقت استعمار استراتيجى من حيث أنه هو نفسه مادة استراتيجية ثمينة للغاية . والواقع أن البترول يضيف بعدا جديدا وأصيلا

إلى أبعاد الاستعمار التقليدية المألوفة فى المنطقة . إنه « البعد الرابع » فى الجغرافيا السياسية فى عالمنا العربى : إنه باختصار وكما عبر البعض « الاستعمار السائل » . ولأنه سائل فأنت لاتستطيع أن تصنفه بين ثلاثية الاستعمار القديم ، ولا أن تمسك بجسمه بصورة مباشرة صريحة . ولهذا فليس صدفة أن يكون ظهور اللون غير المباشر من الاستعمار وهو « الاستعمار الجديد » متعاصرا مع ظهور البترول فى المنطقة . وحين نقول إن الاستعمار الجديد يحل الآن محل الاستعمار القديم فإنما نعنى فى الحقيقة أن الاستعمار البترولى يرث معا الاستعمار الاستراتيجى والاستغلالى على السواء . . .

الاستعمار السكنى :

يمكن أن نعده الاستعمار الكامل . وهو قاصر على حيث يمكن الإقامة والتوطن الدائم للأوربى مع وفرة الموارد الإنتاجية . أى أن شروطه بيئة غنية ومناخ معتدل . والجزء الأكبر من العالم العربى خارج مدارى extra — tropical ، وقطاع منه كبير يمثل بيئات تكرر مناخيا أوطان القوى المستعمرة : فالنطاق المتوسطى فى المغرب وفى الشام يعد مناخا

مشابها homoclime للقوى الاستعمارية اللاتينية إيطاليا وفرنسا وإسبانيا . هذا إلى جانب ثروته الطبيعية المغرية . ولهذا نجد الاستعمار اللاتيني فى المنطقة يتجه بلا هوادة إلى الاستعمار السكنى بعكس الاستعمار السكسونى . من هنا كان المغرب أو إفريقيا الصغرى مجال الاستعمار السكنى الرئيسى فى العالم العربى ، بينما فى جنوب الشام ظهر الاستعمار السكنى فى فلسطين مع الاستعمار الصهيونى . ولهذا فإن الاستعمار السكنى أقل رقعة وانتشارا جغرافيا من الاستغلالى. ولقد كان أول وآخر استعمار يشهده العالم العربى هو من النوع السكنى : الأول فى الجزائر والأخير فى ليبيا ثم فلسطين .

ولئن كان الاستعمار السكنى يتبلور بمعناه الكامل الصارم فى هذه الوحدات الثلاث ، فإن هناك درجات وطبقات مخففة ظهرت فى أجزاء أخرى من العالم العربى . وقد أدخل الاستعمار السكنى بكل درجاته ٣٫٥ مليون أوربى أجنبى إلى المنطقة ، نصفهم فى المشرق ونصفهم فى المغرب . وعلى ضوء الجدول الآتى يمكن فى الواقع أن نصنف الاستعمار السكنى إلى ثلاث طبقات : أولى وثانوى وثالث .

الوحدة	عدد الأوروبيين	النسبة المئوية من المجموعة
الجزائر (قبل الاستقلال)	١ مليون	١٠
فلسطين المحتلة (١٩٦٠)	١ر٧ «	٨٥
مراكش (١٩٥١)	٤٠٣ ألفا	٥ر٢
تونس (١٩٥٦)	٢٥٥ ألفا	٦ر٩
ليبيا (١٩٤٠)	١٠٠ ألفا	٨
ليبيا (١٩٥٤)	٥٠ ألفا	٤
مصر (١٩٢٧)	٢٢٥ ألفا	
مصر (١٩٤٧)	١٤٦ ألفا	٠ر٧

الاستعمار السكنى الأولى :

هذا هو الاستعمار السكنى الحقيقى بمعنى الـكلمة ، وهو هدف فى ذاته وليس تابعا لنوع آخر من الاستعمار . وإذا كان الوطن العربى قد أصيب بمرض خطير مزمن هو الاستعمار عامة فقد أصيبت ثلاثة أعضاء منه — الجزائر وليبيا فى المغرب وفلسطين فى المشرق — بسرطان مدمر قتال . فالاستعمار الاستغلالى والاستراتيجى احتلال سياسى ، ولـكن الاستعمار السكنى وحده

إحلال جنسى . هو محاولة لإبادة الجنس ، وقتل للإنسان العربى ، وابتزاز للوطن ، وتمزيق للوحدة الأساسية للعالم العربى ، وتخليط لتاريخه . من هنا خطورته وشره المستطير .
وللاستعمار السكنى دورة يمكن أن نميز فيها ثلاث مراحل .

فالمرحلة الأولى هى مرحلة الابتلاع السياسى . فالاستعمار السكنى الحقيقى الذى يهدف إلى إحلال بشرى كامل لا يأتى كمجرد سيطرة سياسية أو عسكرية لمستعمرة أجنبية بل يقتطع المنطقة تماما ويضمها كجزء لا يتجزأ من الوطن « الأم » وكواحد من أقاليمها عبر البحار . ففى الجزائر ادعت فرنسا أنها مقاطعة منها أو مقاطعات كمقاطعة « السين أو الرون لا يفصلهما البحر المتوسط « إلا كما يفصل السين بين شمال باريس وجنوبها » كذا ! — أو بالتعبير الإيطالى فيما بعد اعتبرتها « الشاطىء الرابع » لفرنسا بعد شاطىء المانش والأطلسى والمتوسط . . .
وأما إيطاليا فقد ضمت ليبيا « الإيطالية » Libia Itaeiana إليها كجزء لا يتجزأ من كيانها وسمتها الشاطىء الرابع Quarro Sporda « بعد ساحل الأدرياتى والتيرانى والمتوسط !
وفى فلسطين اغتصبت الصهيونية الكيان السياسى لتقيم دولة دخيلة كلية .

أما المرحلة الثانية فهى اغتصاب الأرض . فالاستعمار السكنى لا يبدأ ولا يمكن أن يبدأ إلا بعد امتلاك الأرض الزراعية الممتازة — بالضرورة بانتزاعها من الوطنيين ، وفى الأعم الأغلب بإبادتهم منها . ومذابح ومجازر الاستعمار الفرنسى فى الجزائر فى عقوده الأولى لا تقل بشاعة عن وحشية مذابح الصهيونية فى فلسطين . والواقع أن من أخص — أكاد أقول من أخص — خصائص الاستعمار السكنى أولا عملية رهيبة من تناقص السكان depopulation بالطرق المباشرة — أى الإبادة والقتل — وغير المباشرة أى بالأمراض والأوبئة الوافدة مع المستعمرين . ثم ثانيا عملية تشتيت وانتشار diaspora للوطنيين اللاجئين فى المنفى أو المهجر . هكذا فإن المرحلة التالية فى تاريخ أى استعمار سكنى هى صراع دموى على الأرض: فى الجزائر حدث «الاستعمار الرسمى colonisation officielle» الذى انتزع أجود أراضى التل الجزائرى قهراً ، وطرد ما لم يقتل من السكان إلى الجبال والصحراء فى الداخل . وليست ظاهرة اللاجئين الجزائريين فى تونس ومراكش ظاهرة حديثة فهى قديمة قدم الاستعمار السكنى ولو أنها تضاعفت أثناء حرب التحرير .

وفى ليبيا جاءت مشروعات الاستصلاح الشامل Bonificazione integrale التى رسمت كل تفاصيلها قبلا على أساس إبادة وطرد العرب من كل المناطق الصالحة للزراعة فى برقة وطرابلس حتى أحدثت عملية انتشار diaspora للاجئين الليبيين إلى مصر وغيرها . أما فى فلسطين فقد بدأت الصهيونية بالشراء اللا أخلاقى للأرض فى حماية الانتداب المتواطىء ثم انتزعت بحرب العصابات الأرض العربية غدراً وابتزازاً مع تشريد العرب خارج فلسطين كلية وبصورة تتضاءل بجانبها كل سوءات الاستعمار السكنى فى أى مكان داخل العالم العربى أو خارجه .

أما المرحلة الثالثة فى دورة الاستعمار السكنى فهى التعمير . هنا تتقاطر أفواج المستعمرين « كمستعمرين colons » حقاً وبقصد الإقامة الدائمة واستبدالا للوطن الأم بالوطن الجديد . وذلك فى ظل خطط تعميرية وإسكانية ضخمة مرسومة قبلا . فقد أعدت رسوم مئات القرى للمعمرين قبل أن يتحركوا من وطنهم فى الحالات الثلاث . ويلجأ الاستعمار السكنى فى تبرير نفسه إلى حجج مختلفة كلها ملفق : فالاستعمار السكنى الفرنسى فى الجزائر سخرية — إن لم يكن فضيحة — جغرافية ! يبساطة

لأن فى فرنسا نفسها مساحات شاسعة لم تستغل وتستعمر أولا ولتناقص السكان فيها ثانياً واستيرادها للمهاجرين الأوربيين ثالثا. فكان أولى بها أن تستعمر نفسها من الداخل قبل أن تستعمر فى الخارج . أما فى ليبيا فهو كذلك فضيحة جغرافية أخرى ، لأنه وإن كانت إيطاليا تطفح بإفراط السكان overpopulation وتلفظهم إلى العالم الجديد وغيره ، فإنه ليس فى ليبيا « صندوق الرمال » أى مجال لأى من مثل هذا الطفح . . . أما فى حالة فلسطين فلا مفسر للاستعمار السكنى الصهيونى إلا الحقد الجاهل والغدر السياسى الذى لا يبرره تشريد النازية لليهود أو ضد السامية . هذا ومن الظاهرات المتكررة فى كل الحالات دعوى الاستعمار المتبجحة السقيمة من أن الاستعمار السكنى هو « تبادل سكانى » ليس إلا ! هذا رددته إسرائيل فى قحة خبيثة ورجعته فرنسا بالنسبة للعمال الجزائريين فى فرنسا . ولكنه هنا أو هناك لا يستحق إلا الإزدراء والاحتقار لأنه إسفاف وتدليس يربأ العلم بنفسه عن مناقشته .

هذا ويأتى التعمير السكنى الاستعمارى إلى المستعمرة لا بجاليات عابرة وإنما بمستعمرات ضخمة العدد تتألف من أسرات لا أفراد ، ولذا يقترب تركيب الأعمار وميزان الجنس

فيها من معدلاتها عند الوطنيين ، أى تكون عادية متزنة وتمثل بذلك مجتمعاً متكاملا مستقراً دائما لا مجرد جماعة عابرة . وهى وظيفياً لاتأتى كتجار فقط وإنما كزراع أساساً ، ولذلك لا يقتصرون على سكنى المدن بل يتغلغلون فى الريف . ومع الزراعة تضرب جذورهم فى التربة العربية فتظهر بحسب عمر الاستعمار أجيال منهم عربية المولد والموطن : ففى ١٩٤٨ كان ١٠٥ ألفاً فقط من فرنسيي الجزائر هم الذين ولدوا فى فرنسا ! من هنا يفقدون بالتدريج صلتهم بالوطن الأب بدرجة تتناسب مع البعد الجغرافى والبعد التاريخى حتى لقد تنشأ بينهم لهجات خاصة من اللغة مثل الباتويت Patouéte فرنسية الجزائر . ومن حسن الحظ أن عمر الاستعمار الإيطالى فى ليبيا لم يسمح بمثل هذا التطور .

كذلك إذا كان الاتجاه بشدة إلى سكنى المدن قد لوحظ بين المعمرين فى الجزائر وبصورة صارخة بين المهاجرين فى إسرائيل فهو فى الحالة الأولى ليس إلا اتجاها حديثاً فى السنوات الأخيرة ، أما فى الحالة الثانية فهو نتيجة مباشرة للتاريخ الوظيفى الطفيلى لليهود بين عالم الجنتيل « gentile » وأخيراً يلاحظ أن المستوطنين أو المهاجرين بعد هذا يمثلون بوجه عام صورة

أركية متحجرة من مجتمع الوطن الأب كما كان حين تركه حيث قد لا نجد لها مثيلا فى الوقت الحالى ولقد قيل إنك لا تستطيع أن تجدصورة لفرنسا القرن الثامن عشرفىفرنسا اليوم ولكنك واجدها فى كندا أو الجزائر .. هم كذلك يكتسبون بسرعة نظرة ضيقة متعصبة رجعية ويشكلون مجتمعاً « مغلقاً » منعزلا « بالحاجز الحضارى culture bar » إن لم يكن أحيانا « بالحاجز اللونى colour bar » عن الوطنين الذين يعدونهم فى الحقيقة أعداء أكثر منهم « مواطنين من الدرجة الثانية » فالمعمرون فى الجزائر أثبتوا أنهم أكثر أطراف السياسة الفرنسية جموداً وتحجراً وإرهابية . أما الصهيونية فى إسرائيل فمن المعروف أنها الآن أشد يهود العالم تطرفاً ورجعية وأنانية وشراسة عقلية وأخلاقية . بل الواقع أن الصهيونية « تتفرد » فى العالم بأنها تجمع بين أسوأ ما فى عنصريه جنوب إفريقيا وفاشية النازية .

الاستعمار السكنى الثانوى والثالث :

هنا يكون الاستيطان والسكنى تابعين لغرض استعمارى آخر استراتيجى أو استغلالى ، ولكن يظل الأجانب جاليات لا مستعمرات ، وكثيراً ما تكون أفراداً لا أسرا ، أى تظل

مجتمعاً عابراً غير مستقر ، يتجدد من حين إلى آخر . وبحسب نسبة المستعمرين يمكن أن نضع تونس ومراكش ومصر فى المرتبة الثانوية ، والسودان وسوريا ولبنان فى المرتبة الثالثة . وفى تونس ومراكش خاصة كان الاستعمار السكنى مرحلة انتقالية نحو النمط الجزائرى ، وعرف الاستقرار والاستثمار الزراعى والملكية الزراعية إلى جانب النشاط المدنى . أما فى مصر فلئن كان الاستعمار الاستراتيجى هو البداية والنواة ، فقد نمى حوله بعد قليل مصالح اقتصادية عميقة تجاذبت حولها بدورها مستعمرات سكنية حتى أصبح الاستعمار فى الحقيقة مثلثاً ، وإن يكن مثلثاً قائم الزاوية وتره الحساس هو الاستراتيجية ؛ والواقع أن جسم الاستعمار السكنى فى مصر بلغ حجماً كبيراً وصل فى حين ما إلى ربع المليون أى نحو حجمه فى تونس إلا أن ضخامة الحجم السكانى لمصر هى التى تخفى عنا هذه الحقيقة. ولئن كان الاستعمار السكنى هنا مدنيا أساسيا وعاصميا فى المحل الثانى ، فقد سيطر على الاقتصاد الزراعى والملكية الزراعية عن طريق الشركات العقارية واستصلاح البور والبرارى الخ . أما فى الشام والسودان فأعداد الأوربيين ونشاطهم أقل .

على أن من خصائص الاستعمار الثانوى والثالث أن يتألف

— إلى جانب أبناء الدولة المستعمرة — من عناصر وقوميات عديدة مختلفة تنسج حوله شرنقة كثيفة تعيش فى ظله وفى حماية « الامتيازات الأجنبية » التى فرضها لوقت أو آخر . ففى تونس ومراكش كان يوجد الإيطاليون والإسبان والمالطيين إلى جانب الأغلبية الفرنسية . وفى مصر لم يكن الإنجليز إلا أقلية داعا تفوقهم الجاليات الفرنسية واليونانية والإيطالية ، يضاف إلى الجميع الأرمن والقبارصة والمالطيين الذين هاجروا مع الاستعمار . وبعض هذه الجاليات يتوغل فى الحياة القومية حتى سكنوا المدن الاقليمية بل والقرى أحيانا . ومن الطريف — بل الغريب — أن الاستعمار يسمى هذه العناصر والأقليات الوافدة « بطفيليات الاستعمار colonial parasites » ، ولا يذكر من هو الطفيلية الكبرى !



الباب الثاني

ثورة التحرير في العالم العربي

ضوابط أولية

لعل أول حقيقة عن جغرافية التحرير تبرز نفسها فى العالم العربى وتلح فى طلب تعليل لها هى أن التحرير جاء فى ثورة انفجارية كالعاصفة . وقد يكون من الصعب أن نحدد تاريخ التحرير الحقيقى ، تمييزا له عن الاستقلال الشكلى فى بعض الحالات . فمصر شكليا مستقلة منذ ١٩٢٢ ، والعراق منذ ١٩٣٤ . ولكن من الصواب أن نعد نهاية الحرب الثانية نقطة بداية التحرير وذلك منذ تحررت سوريا ولبنان فى ١٩٤٥ إلى أن تحررت الجزائر فى ١٩٦٢ . وعلى هذا فإن التحرير قد تركز فى نحو ١٥ سنة فقط ، هدم فيها ما بناه الاستعمار فى ١٣٠ سنة ! أى أن معدل زحف التحرير أشد عدة أضعاف من معدل زحف الاستعمار ، وبينما تم الأخير فى ثلاث موجات تم التحرير فى موجة واحدة .

وإذا كان التحرير قد تم فى سوريا ولبنان فى ١٩٤٥ ، فسرعان ما تحقق فى ليبيا ١٩٥٠ ثم فى مصر فى ١٩٥٣ ، بينما كانت ١٩٥٦ عاما حاسما بالنسبة للعالم العربى الإفريقى إذ استقلت

فيه ٣ وحدات هى تونس والمغرب والسودان ، وبعدها بقليل استكمل العراق استقلاله الحقيقى ، وفى ١٩٦١ استقلت الكويت وتلتها الجزائر فى ١٩٦٢ . وبهذا يكون العالم العربى الإفريقى قد تحرر كلية . وذلك رغم بعض الجيوب الاستعمارية الفرنسية المتخلفة فى بنزرت فى تونس « التى طهرت فى ١٩٦٣ » والمرسى الكبير فى الجزائر والأسافين الإسبانية سبتة ومليلة وإفنى فى المغرب . وسيلاحظ أنه بالعالم العربى قد بدأت أول عملية تحرير فى إفريقيا على طول ضلعى ساحل البحر الأحمر والمتوسط . هذا بينما أن آسيا العربية ، التى كانت معقل القطاع الوحيد الذى نجا من الاستعمار أولا وموطن بدء عملية التحرير ثانيا ، قد أصبحت الآن المعقل الأخير للاستعمار فى العالم العربى . فالاستعمار المتخلف هنا يتوزع فى فلسطين المحتلة فى الشمال وفى الجنوب العربى ابتداء من عدن حتى البحرين .

وهنا نجد أن الاستعمار الذى زال نهائيا هو الإيطالى ثم الفرنسى تقريبا ، أما البريطانى فهو اليوم آخر استعمار كبير ما زالت له بقايا فى المنطقة ، بينما الغريب حقا أن الاستعمار الإسبانى المزيل مازال متشبثا «بامبراطورية الجيوب والأسافين» التى تنتشر على ساحلى المغرب ، وأن أخطر استعمار يجثم فى المنطقة

هو الاستعمار التابع الضالع — الاستعمار الصهيونى . وتبلغ مساحة الاستعمار المتخلف فى كل المنطقة الآن نحو ٥٨٩ ألف كم٢ أو ٥ر٢ ٪ من العالم العربى ، كما يبلغ عدد السكان نحو ٣ مليون نسمة « تشمل أكثر من مليون من اللاجئين الفلسطينيين خارج أرض الاستعمار الصهيونى » .

وربما كان من الخير لنا أن نبادر عند هذا الحد فنتساءل : أين يقع توقيت التحرير العربى من حركة التحرير العظمى فى العالم ؟ لا شك أننا نعيش عصر التحرر بكل معنى الكلمة ، فكما كان القرن التاسع عشر قرن الاستعمار ، كان القرن العشرون قرن التحرير . ولكننا سنلاحظ أن المد التحررى العربى لم يبدأ بصورة فعالة إلا بعد أن كانت آسيا الموسمية قد تحررت فى مجموعها تقريبا . فباستثناء سوريا ولبنان انطلق تيار التحرير العربى بصفة خاصة منذ ١٩٥٠ بينما كانت الهند والباكستان وإندونيسيا وأغلب وحدات الهند الصينية قد استقلت من قبل . ومن الناحية الأخرى سنرى أن الموجة التحررية العربية كانت قد تخطت ذروتها قبل ١٩٦٠ وهى السنة التى فيها بدأ تحرير أفريقيا المدارية . ومعنى هذا أن التحرير العربى بدأ زمنيا حيث انتهى التحرير الأسيوى ، بينما حيث انتهى هو

بدأ التحرير الأفريقى : فما معنى هذا ؟ هل له مغزى نضالى خاص ؟

كثيرا مايفسر الشطر الأول من هذه المتتابعة على أن التحرير العربى رد فعل تابع وظيفيا تال تاريخيا للمد الآسيوى . ولكن هذا الترتيب إنما هو ترتيب تواريخ الاستقلال الرسمى . والتحرير العربى يمكن أن نقول إنه بدأ منذ بدأ الاستعمار . فكل الثورات والانتفاضات فى الجزائر والمغرب العربى عامة وفى مصر والشام والعراق والتى تنقط كل عقود القرن الماضى والحاضر دليل واضح . هل نريد دليلا أوضح ؟ من المحقق تاريخيا أن ثورة ١٩١٩ فى مصر كان لها صدى هائل فى الهند خاصة وآسيا عامة ، وكانت وحيا لحركات تحريرية متلاحقة هناك . ومن ناحية أخرى فإنه إذا أخذنا الناحية الشكلية فإن مصر تعد دولة مستقلة ذات سيادة منذ ١٩٢٢ ، وإلا فمنذ ١٩٣٦ . والعراق منذ ١٩٣٤ . هذا عدا أن سوريا ولبنان قد تحررتا فعلا قبل أى وحدة فى آسيا المدارية . ومعنى هذا أن التحرير وإن تأخر ظاهريا فى مجموعه فى العالم العربى عنه فى آسيا المدارية ، فهو أسبق واقعيا .

وهذا هو الترتيب المنطقى ، لأن العالم العربى ليس أقرب إلى أوربا فى الموقع الجغرافى فقط ولكن فى الموقع الحضارى

كذلك . وكما أن القوة الحضارية النسبية للعالم العربى هى التى أخرت دخول الاستعمار الغربى إليه طويلا عنه فى العالم الآسيوى فهى نفسها التى تفسر سبق التحرير الفعلى العربى عن الآسيوى ، أما لماذا تأخر النجاح القانونى للتحرير العربى رغم هذا السبق الحضارى والنضالى فيرجع أساساً إلى الموقع الاستراتيجى للعالم العربى كشريان المواصلات إلى عالم الاستعمار الآسيوى مما جعل الاستعمار أكثر ما يكون تشبثاً به وضراوة فيه. ولاسيما أن قرب هذا الموقع الشديد من أوربا ـ قوة الاستعمار ـ قد شدد من قبضتها عليه وكبتها له . فموقفه التحريرى أدق وأصعب . قارن مثلا نضال الهند الصينية بنضال الجزائر إزاء فرنسا ، ونضال الهند بنضال مصر إزاء انجلترا : وعدا هذا فإن عمر الاستعمار فى آسيا الموسمية يعادل فى المتوسط ضعف أو ثلاثة أمثال عمره فى العالم العربى .

أما بالنسبة لإفريقيا المدارية فلا شك أن هناك وحدات إفريقية أقدم استقلالا من العالم العربى كله . فأثيوبيا . وليبريا هما أقدم وحدات القارة استقلالا فى الواقع . ولكن لهذا أسبابه المفهومة من منعة وعزلة القاعة الحبشية الجبلية وظروف إنشاء ليبريا الخاصة « لتحرير » الرقيق الأمريكى العائد على الترتيب . فكلاهما استقلال سلبى إذا جاز القول . ولهذا تظل الحقيقة

قائمة وهى أن المثل العربى كان مباشراً وحاسماً فى تفجير وتحريك الثورة التحررية على تخومه الجنوبية ، بل تعدى التأثير إلى النطاق العملى بالمساعدة الإيجابية حتى كان العالم العربى فى مجموعه بحق « واحة إفريقيا » . وعلى هذا فسواء بالنسبة للجناح الأسيوى أو الإفريقى من العالم المدارى يقف العالم موقفاً رياديا كنواة للتحرير وكان دائماً — كأقرب أجزاء « العالم الثالث Le tievs monde » كما تسمى الدول المتخلفة إلى أوربا موقعاً وقامة — يمتاز بدينامية جيوبوليتيكية فياضة بالإشعاع السياسى فيما حولها .

ولكن لا بد هنا من وقفة قصيرة عند ظاهرة مؤسفة . ففى العالم العربى أجزاء مازالت خاضعة للاستعمار بينما أغلب أجزاء إفريقيا المدارية قد تحرر ولفظ الاستعمار . وبغير عنصرية أو استعلاء ينبغى أن تكون هذه الحقيقة المخجلة بل المهينة حافزا يلهب المقاومة العربية ، ليس فقط لأن المحيط العربى كان دائما أقوى من المحيط الإفريقى ، وإنما بعض أجزاء هذا الأخير التى تحررت اليوم من الاستعمار كانت من قبل تابعة لأجزاء من الأول ما زالت اليوم مستعمرة — مثال ذلك كينيا وزنجبار بالنسبة لعمان وعدن ... ومرة أخرى نحن نكرر أن هذا لا نقصد به

تباعدا أو تعاليا وما نريد له أن يعطى مادة لمحاولات الاستعمار للدس والوقيعة بين العرب والإفريقيين ، ولكننا نود فقط أن نقرر الواقع التاريخي ونستمد من درس التاريخ حافزاً انا إلى تصفية آخر قطرة للاستعمار فى محيطنا العربى التليد العريق .

نعود إلى مناقشتنا فنقول إن هناك إذن تتابعاً زمنياً معيناً بين توقيت التحرير فى قطاعات العالم القديم المختلفة . ولكن هذا التفاوت دقيق فى مجموعه بحيث ينبغى ألا يخدعنا عن حقيقة أخطر وأعمق وهى أن التحرير — إذا وسعنا البؤرة قليلا — يؤلف فى كل أجزاء العالم ظاهرة واحدة متعاصرة أساساً . فكما كان الاستعمار عدوى ووباء القرن ١٩ ، نجد التحرير اليوم ظاهرة « معدية Contagious » بالضرورة . ولقد أصبح التحرير بلا ريب روح العصر Zeitgeist . والسبب أن المناخ السياسى فى العالم كله جعل الثورة على الاستعمار ظاهرة كوكبية لاعلاقة لتوقيتها بعمر الاستعمار هنا أو هناك .

ولكن لاشك أن وراء روح العصر هذه عوامل مادية وسياسية صلبة علينا أن نبحث عنها . وفى هذا يمكن أن نتعرف على عاملين رئيسيين . فهناك أولا ميكانيكية نمو المستعمرات . فالاستعمار سلاح ذو حدين . فلكى يستغل مستعمرته لمصلحته

يضطر إلى إدخال الوسائل الحضارية والتكنولوجية التى تساعده على ذلك . أى أنه يعجل بعملية الاحتكاك الحضارى والتحضير التى تنعكس على الوطنيين نموا فى القوة البشرية Man — power وفى الكفاءة الفنية فيشتد ساعدهم وقدرتهم المادية على النضال السياسى . وليس أقل أهمية من الناحية الحضارية المادية النواحى النفسية . فالاحتكاك الحضارى مع بداية الاستعمار يصيب الوطنيين بانهيار حضارى وانهيار نفسى يسهل الانتصار للاستعمار ولكن مع تشربهم وتمرسهم بالحضارة الجديدة — والإلف يورث الاحتقار — يدركون أسرارها بل ويدركون فضلهم التاريخى فيها ، مما يرفع روحهم المعنوية إزاء المستعمر ويحل مركب النقص الحضارى . وبمعنى آخر فإن كلا من ميكانيزم وسيكلوجية الاحتكاك الحضارى لاتلبث أن تقوى ساعد التحرير مادياً ومعنوياً حتى ينجح فى طرد الاستعمار .

وما لدينا من أرقام لنمو السكان يوضح هذا . فيوم واجهت الجزائر الغزو الفرنسى فى ١٨٣٠ لم تكن قوتها البشرية تزيد عن مليونى نسمة ، بينما كان وراء التحرير فى خمسينات هذا القرن تسعة ملايين . وحين الاحتلال البريطانى كانت مصر تزن فى ميزان القوة العددية ٧ ملايين مقابل نحو من العشرين مليوناً

حين التحرير . وبالمثل بقية البلاد العربية . والخلاصة أن الاحتكاك الحضارى الذى يصاحب الاستعمار لا يلبث أن يضيق الهوة الحضارية — التى هى أساس التفوق العسكرى للاستعمار — بين القوة الدخيلة والداخلية . وهكذا يؤدى منطق الاستعمار من صميم نفسه وبطريقة ديالكتيكية إلى نقيضه تماماً . تلك متناقضة ساخرة فى منطق الاستعمار، وهى وحدها تجعل نهايته محتومة بطبيعته،فهو يهزم أغراضه ويستهلك نفسه بنفسه ويحمل فى كيانه جرثومة فنائه . هذا أول .

أما العامل الثانى فى تصفية وإذابة الاستعمار فهو انتهاء احتكار القوة العالمية فى يد قوى أوربا الاستعمارية Power monopolg. فبوسعنا أن نقول إنه طوال القرن ١٩ كانت الكرة الأرضية تمثل إلى حد بعيد نظاما سياسياً واحدا مغلقاً Closed system يخضع للغرب . ولكن الصراعات الداخلية والتوترات الكامنة فى هذا النظام المغلق صدعته ومزقته ، ومن المفروغ منه أن الذى سهل طريق التحرير فى بعض الحالات فى العالم العربى إنما هو الصراع والتنافس المتبادل بين القوى المستعمرة ، وصدام بريطانيا مع فرنسا فى اللفانت (الشام) فى أخريات الحرب الثانية هو الذى عجل بتحرير سوريا ولبنان ، كما أن المناورات

الاستعمارية من أجل الوصاية على إرث الاستعمار الإيطالى فى ليبيا هو الذى « حيد » كل القوى فى النهاية وأعطى ليبيا استقلالها . فالمصادمات والمتناقضات الداخلية فى الاستعمار العالمى بقدر ما أضعفته بقدر ما قوت حركات التحرير .

ولكن لا يقل خطراً عن ذلك أن تضعضع الاستعمار بالصراع الداخلى والحروب المتواترة قد أعطى الفرصة لظهور قوى جديدة ضخمة ، حتى أصبح النظام الثنائى بين كتلتين متصارعتين هو أبرز خصائص الجغرافيا السياسية المعاصرة ، وأصبح العالم سياسياً « نصفى كرة » كما قد نقول : ومن هنا لم تعد المستعمرات تعيش فى سوق سياسية احتكارية تماماً تحت رحمة الاستعمار المطلقة وإنما فى سوق حرة نوعاً أعطاها على الأقل حرية الحركة والمناورات والمضاربة بينهما حتى تمكنت من انتزاع حريتها . ومن المؤكد أن العالم العربى أفاد من ميزان القوى الجديد فى العالم إفادة ذكية وشجاعة ساعدته فى التحرير . ولو أن موقفه فى هذا كان أقل حظاً من موقف العالم الأسيوى الذى يقع إما لصق أو قرب أو فى ظل القوة « القطبية » الجديدة ، بينما العالم العربى بمواجهته المباشرة لقلعة الاستعمار

فى أوربا أدخل فى فلك الغرب الجغرافى ، بل إن الجزء الأكبر منه يقع تماماً فى محيطه السياسى أو على الجانب الخطأ من « خط الاستواء السياسى » الجديد فى العالم . وعدا هذا فالملاحظ أن بلاد المستعمرات المتخلفة التى أصبحت الآن نامية قد بدأت زيادة على التحرير تثبت بدورها أن أبعاد العالم ثلاثة لا اثنان . أى بدأت تصبح قوة عالمية ثالثة ، وطاقة موجبة لا سالبة . وفى هذا المجال يلعب العالم العربى — بلا مجاملة أو تحيز — دوراً قيادياً طليعياً لا شك فيه .



زحف التحرير

العوامل المساعدة والمضادة :

لم يتقدم التحرير فى كل أجزاء العالم العربى فى وقت واحد ، بل سبقت بعض الوحدات البعض الآخر فى تاريخ التحرير . فكانت سوريا ولبنان أول من استقل فى سنة ١٩٤٥ ، تتلوها ليبيا فى ١٩٥٠ ثم مصر فى ١٩٥٣ ، ثم السودان وتونس والمغرب فى ١٩٥٦ . ثم العراق فى ١٩٥٨ ، وأخيراً الكويت فى ١٩٦١ ، فالجزائر فى ١٩٦٢ . والشىء المؤكد فى هذا الترتيب أنه لا يعكس بالضرورة قوة المد التحريرى أو الضغط النضالى . ولقد رأينا أن مصر والعراق أسبق من الناحية القانونية إلى درجة من السيادة والاستقلال . كما أنه من الناحية الفعلية بدأت حرب التحرير فى مصر منذ ثورة عرابى ربما ، ولكن بالقطع منذ ثورة ١٩١٩ . وقد كانت مصر بحكم موقعها ووزنها مركز الوعى ومنبع الوحى فى الكفاح التحريرى ، فكانت نموذجاً للمغرب العربى ومثالا للمشرق ، وكانت حجر الزاوية والقوة الركن موقعاً ودوراً . وإذا كان

العالم العربى فى مجموعه قد لعب دور الواحة بالنسبة لنضال أفريقيا فإن مصر كانت واحة العرب سياسيا . ولعل من الغريب بعد ذلك أن تتخلف فى انتزاع سيادتها الكاملة عن سوريا ولبنان وليبيا مثلا . ولكنا مع إعادة النظر لا نجد فى ذلك غرابة : فبقدر مقاومة وضغط التحرير كانت قوة الاستعمار واستماتته .

ولما كان تاريخ التحرير — كالاستعمار — مختلفاً بين الدول العربية فإن عمر الاستعمار يختلف من وحدة عربية إلى أخرى . فكانت الجزائر أسوأ الجميع حظاً بالاستعمار الفرنسى الذى امتد ١٣٢ سنة ولا تقل عدن والمحميات عن ذلك كثيراً . أما فى تونس فقد عاش الاستعمار ٧٥ سنة مقابل ٧٢ سنة فى مصر ونحو ٥٨ فى السودان . وفى كل من مراكش وفلسطين أقام ٤٤ سنة مقابل نحو ٤٠ سنة فى كل من ليبيا والعراق . وكانت سوريا ولبنان أسعد حظاً فلم يزد فيهما عن ٢٧ عاما . ومن هنا نرى أن الاستعمار عمر فى الجزائر قدر ما أقام فى كل وادى النيل بمجموعه أو قدر كل عمره فى الهلال الخصيب بوحداته المختلفة .

وأكثر منها نلاحظ أن تاريخ التحرير يكاد يتناسب عكسياً مع تاريخ الاستعمار ، فكلما بكر الأخير كلما تأخر الأول .

فكانت الجزائر أول ما استعمر وآخر ما تحرر ، وكما وقعت مصر مبكراً نسبياً أزمن الاستعمار فيها نسبيا ، بينما كانت سوريا ولبنان آخر ما استعمر وأول ما تحرر . وليست هذه العلاقة بطبيعة الحال مطلقة عامة ، ولكنها تدل على أن اختلاف أعمار الاستعمار بين وحدات العالم العربى وترتيب أسبقية التحرير فيما بينها ليست وظيفة مباشرة لقوة المقاومة الوطنية ضد الاستعمار بقدر ما هى نتيجة لعوامل خارجية من جانب الاستعمار نفسه . ومعنى هذا أن الحقيقة العلمية هى ألا فضل لأحد على أحد بين العرب فى ترتيب أسبقية التحرير .

ونحن ما كنا لنضغط على هذه الفكرة لولا أن الرجعية العربية حاولت بخبث أن تقلب الحقيقة إلى نعرة إقليمية تدس بها إسفينا من التنابذ بين العرب . فهى فى صراعها ضد موطن التحرير العربى أوعزت بأن « مصر حديثة عهد بالاستقلال » هكذا زعمت آئمة الرجعية والانفصالية العربية ، مرجعة فى ذلك صوت الاستعمار وتخرصاته المدسوسة التى يقصد بها أن تفتت حركة التحرير العربى ضده . فحتى وهى لا تزال تكافح الاستعمار كانت الدول العربية الأخرى التى استقلت تعترف لها — لمصر أعنى — بالدور القيادى فى التحرير وتستمد منها

الإلهام . ولئن كان المقصود بهذا أن مصر وقعت قبل غيرها تحت الاستعمار الأوربى فإن هذا الغير ظل خاضعا أثناء ذلك للاستعمار التركى الذى كان جاثما من قبل على الجميع . وإذا كان المقصود أن الاستعمار الأوربى غادر مصر نهائيا بعد غيرها فإنها كانت قانونياً أسبق إلى الاستقلال رغم التحفظات . ولكن الخطر الحقيقى كل الخطر فى مثل هذه الإثارة هو مبدأ المعايرة بالاستقلال بين بلاد كانت كلها « فى الاستعمار عربا » وتظل جميعاً فى النضال والمصير عربا .

والواقع أن طول عمر الاستعمار من ناحية وترتيب تاريخ التحرير من ناحية أخرى فى أجزاء العالم العربى يرجع إلى ضوابط أقلها محلى وأكثرها خارجي . وعلينا الآن أن ننتقل إلى تحليل هذه الضوابط لنجد منها على الأقل ثلاثة . هى نوع الاستعمار ، والبيئة الطبيعية ، والصراع الاستعمارى .

نوع الاستعمار والتحرير :

فأما عن نوع الاستعمار فمن المحقق أن الاستعمار السكنى يمثل أعتى مشاكل التحرير فى المنطقة لأن المشكلة هنا هى اقتلاع جذور دخيلة ضربت فى قلب التربة . وتتناسب صعوبتها تناسبا

طرديا مع القوة والنسبة العددية للمستوطنين من ناحية وعمر الاستعمار من ناحية أخرى . فالعلاقة عكسية بين التحرير والاستيطان : إنها علاقة بين القوة والمقاومة . ولهذا كان الاستعمار الإيطالى فى ليبيا أسهل اجتثاثا منه فى الجزائر التى كاد يصل الموقف فيها إلى درجة اليأس فى بعض الأحيان . ولهذا كان ثمن التحرير هناحربا كاملة سبعية وأكثر من مليون ونصف مليون شهيد وما لا يقاس بالأرقام من شلل وتخريب ودمار .

وقد أثبتت تجربة الجزائر أن مشكلة التحرير مع الاستعمار السكنى مشكلة مزدوجة ، فهو لا يكافح القوة المترو بوليتانية فقط بل والمستوطنين أيضا . فكلما أشرف على انتزاع تنازلات من الجانب الأول تحول الثانى إلى عصابة إرهابية داخلية « تأخذ القانون فى يدها » وتفرض نوعا خاصا من حكم الملاك Landocracy هو حكم ملاك الاستعمار Plantocracy وتعلن العصيان والتمرد على الحكومة « الأم » مهددة « بحرب استقلال » (كذا !) للانسلاخ عنها والانفراد بالمستعمرة « والتقسيم » مرحلة أخرى وأخيرة فى دور حياة — أو وفاة — الاستعمار السكنى فحين تجد القوة المترو بوليتانية أو المستوطنين أنفسهم مرغمين على التسليم بالاستقلال يحاولون بالإرهاب فرض مساومة تقسيم

جغرافى للمستعمرة إلى دولتين دولة أروبية مستقلة ودولة وطنية مستقلة . وقد وضعت فرنسا بالفعل عدة تخطيطات بدائل على أساس التقسيم وتركيز الأوربيين فى دولة ساحلية غنية . وبطبيعة الحال فشلت المناورة كما تفشل دائما فى كل مناطق الاستعمار السكنى فى كينيا أو روديسيا أو جنوب أفريقيا . . الخ .

وتتكرر نفس مراحل وملامح الدورة التحريرية فى فلسطين مع فروق خاصة . فهنا وصل الاستعمار السكنى إلى أخطر صوره فى العالم العربى . ورغم أنه أقصر حالات الاستعمار عمرا فى المنطقة فإنه السرطان الحقيقى فى قلبها ويعد بلاشك أكبر تحد للتحرير العربى . فقد جلب بسرعة قوة عددية هائلة من المستعمرين تزيد عما جلبه فى الجزائر فى أضعاف المدة . ولما عجز عن ابتلاع فلسطين كلية اكتفى مؤقتا بمرحلة التقسيم . وكما رفض التقسيم فى الجزائر فكذلك رفض التقسيم من قبل فى فلسطين . أى أن دورة التحرير هنا لم تستكمل بعد وتنتظر النهاية . ولهذا يظل الاستعمار الصهيونى فى إسرائيل معسكرا حربيا مستمرا فى حالة حرب دائمة قانونيا وفى حالة تهديد سافر واقعيا .

والاستعمار الاستراتيجى يلى السكنى فى مدى صعوبة التحرير فيه . وليس صدفة أنه من أقدم حالات الاستعمار فى المنطقة بداية

وآخرها نهاية ، بل هو ما زال يتشبث فى الجنوب العربى حتى الآن . ومن المحقق أنه لم يهتز أخيرا ويتراجع إلا بعد ظهور الاستراتيجية الذرية الجديدة التى هزت كل قواعد الاستراتيجية التقليدية . ولو أن هذا الانقلاب العسكرى قد ظهر منذ عقود ، أو لو أن الهند قد استقلت فى وقت مبكر ، لكان من الراجح أن تستطيع مصر أن تنتزع استقلالها منذ ذلك التاريخ . وقد حان الآن دور الجنوب العربى . ومن مراحل دورة الاستعمار الاستراتيجى فى تراجعه الاحتفاظ فقط بالقواعد الحربية — « الاستعمار الجزئى » كما قد نسميه . وقد حاولتها بريطانيا فى قاعدة القنال حيث انسحبت من الوادى لفترة حتى نسختها حرب السويس ، كما حاولتها فى العراق فى الحبانية وفى الأردن فى المفرق وبالمثل فرضتها فرنسا على تونس فى بنزت . فلما فشلت هذه المرحلة تلتها بعد الاستقلال مرحلة استئجار القواعد فى ظل الاحلاف العسكرية كما فى الأردن وليبيا والمغرب .

أما الاستعمار الاستغلالى فهو — على ضراوته — أسهل إزالة من غيره نسبيا . فالأقليات الأجنبية هنا ضئيلة عابرة تعتمد فى النهاية على حماية دولة الاستعمار المتروبول . ويندر أن تستطيع أن تؤثر على سياستها أو أن ترغمها على البقاء فى وجه المد التحررى

حين يبدأ. ولهذا وجد التحرير هنا أن من السهل عليه نسبيا أن يضغط بلا حرب، ووجد الاستعمار أنه من الممكن أن يتنازل — على الأقل عن الشكل ، وذلك غالبا بالوصول إلى أنصاف حلول هى الاستقلال السياسى مع بقاء ارتباطات اقتصادية وثيقة تحقق هدف الاستعمار الاستغلالى الأصلى دون أن تصطدم بشكل التحرير الاستقلالى . وفى حالة فرنسا كان مبدأ « الاستقلال داخل الترابط » شرطا مطاطا فى تحرير المغرب العربى . ولا ننسى أن لتونس والمغرب حاليا ارتباطات معينة بالسوق الأوربية المشتركة. وقد تحاول القوى الاستعمارية السابقة الاحتفاظ بنفوذها الاقتصادى بعد الاستقلال عن طريق المعونات الاقتصادية كبريطانيا فى ليبيا والأردن .

على أن ظهور البترول فى المنطقة فى الوقت الذى وصل فيه المد التحررى إلى ذروته جاء عاملا له دور سياسى خاص — دور سياسى مذبذب ambivalent إلى حد ما . فاستماتة فى التمسك به ، حاول الاستعمار أولا أن يبقى بكل قوة فى حالات ومن المحقق أنه أخر التحرير فى الجزائر وفى دويلات الخليج وفى الجنوب العربى . ولكن من ناحية أخرى أدرك بعد قليل أن من الأجدى أن ينسحب إذا ضمن امتيازات البترول —

« ارحل لتبقى ! » — فكان البترول قوة معجلة بالتحرير كما حدث فى الكويت ثم فى الجزائر حيث كانت مشاركة فرنسا فى امتيازات بترول الصحراء مناصفة شرطا أساسيا فى الاستقلال. ولكن فى مناطق أخرى كالجنوب العربى يظل البترول عاملا مضادا للتحرير وحافزا للاستعمار على الاستماتة من أجل البقاء أطول فترة ممكنة .

التحرير والبيئة الطبيعية :

ربما كان لعامل القرب أو البعد الجغرافى أهميته فى التحرير. فالقرب الجغرافى الشديد سهّل — ابتداء — الاتجاه السكنى للاستعمار اللاتينى فى المغرب . ثم كان بعد ذلك حاسماً فى تأخير وإعاقة التحرير . ولكن أهم من عامل الموقع عامل البيئة الطبيعية المباشرة . ولقد رأينا — ابتداء — أن الوحدتين اللتين نجتا من الاستعمار وهما السعودية واليمن إنما نجتا بفضل عوامل بيئية طاردة . فالأولى بيئة صحراوية فقيرة إنتاجيا أو استراتيجياً ، والثانية قلعة وعرة شماء وليست على درجة كبيرة من الغنى فى الموارد أو الإمكانيات . وإذا كانت حالة ليبيا تناقض هذه

القاعدة فإنها لا تنقضها : لأن دوافع الاستعمار هنا كان الغرور والمجد العسكرى أكثر منها أى شيء آخر .

وتاخذ البيئة الطبيعية دوراً إيجابيا فى التحرير فى المغرب خاصة . فهنا — كما فى حالات كثيرة من مناطق الاستعمار السكنى فى إفريقيا — يتفق أن المنطقة هضبية جبلية وعرة أى من مناطق القلاع الطبيعية التى تضعف قبضة الضبط الاستعمارى وتسمح للوطنيين بحرب العصابات guerilla warfare ، بينما هى تضاد جيوش المستعمر الميكانيكية ، كما أن الغطاء الغابى الذى يكسوها بطبعه يعطى ستاراً مانعاً ضد السلاح الجوى . أى أن البيئة الطبيعية تأخذ هنا صف الثوار وجانب التحرير . وقصة كفاح عبد الكريم فى الريف ضد الإسبان فى الثلاثينات ثم حرب التحرير الجزائرية السبعية أخيراً خير تجسيم لدور الجغرافيا الطبيعية فى التحرير ، وقد أصبحت جبال القبائل وأوراس رمزاً وطنيا وموطنا للتحدى والنضال القومى .

الصراع الاستعمارى :

كما جاءت الاتفاقات والتفاهمات الاستعمارية فى البداية كارثة على استقلال بعض أجزاء العالم العربى ، فكذلك من المحقق

أن المنافسات والصراعات الداخلية بين القوى الاستعمارية أو مخاوفها من القوى المعادية كالكتلة الشرقية ومناوراتها معها قد أعطت فرصة للتحرير فى كثير من وحدات العالم العربى. وقد تكرر هذا أكثر من مرة أثناء الصراع الخفى بين بريطانيا وفرنسا ومحاولة الأولى زحزحة الثانية من المنطقة ثم فيما بعد أثناء الصراع المقنع بين بريطانيا والولايات المتحدة ومحاولة الثانية وراثة الأولى فى المنطقة بطريقة سلمية.

ففى أواخر الحرب الماضية عادت فرنسا الحرة إلى سوريا ولبنان بعد سيطرة المحور لفترة عن طريق حكومة فيشى، فاشتدت حركة التحرير ضد عودة الاستعمار الفرنسى الذى كان قد وعد بالاستقلال أثناء محنته ثم نكث بعهده بعد عودته. وتحولت الحركة إلى ثورة وطنية دامية تدخلت على أساسها بريطانيا بحجة أن الموقف يهدد أمن الحلفاء فى المنطقة والحرب لما تنته بعد وضغطت على فرنسا لتعلن الاستقلال.

وفى تقرير مصير ليبيا كواحدة من مخلفات الاستعمار الإيطالى المنهزم بعد الحرب الثانية حاولت كل من بريطانيا وفرنسا وإيطاليا أن تتولى « الوصاية » على ولاياتها برقة وفزان وطرابلس على الترتيب. ولكن اعتراض الاتحاد

السوفيتى على عودة إيطاليا ومحاولتها أن تحل محلها دفع الاستعمار مرغماً أن يقرر الاستقلال — فقط إبعاداً للاتحاد عن «التسلل» إلى الشرق الأوسط . وفيما بعد فى حرب الجزائر لم يكن سراً أن المصالح الأمريكية البترولية تتصل بالثورة من وراء ظهر فرنسا على أساس أن فرص مشاركتها فى امتيازات بترول الصحراء الجديد أكبر مع جزائر مستقلة . منها مع جزائر فرنسية . وهكذا كان للقوى المعادية أو الناقمة على الاستعمار فضل غير مقصود فى التحرير العربى — تماماً كما كان لليابان فى التحرير الآسيوى أثناء الحرب الثانية .



التحرير والخروج الأبيض

من أبرز النتائج ذات المغزى البعيد للتحرير وإذالة الاستعمار deco lonisation « الخروج الأبيض white exodus » ، ونعنى به هجرة الجاليات والمستعمرات الأوربية من البلاد العربية بعد إقامة طالت وأزمنت . وقد تبلورت هذه الحركة مع الاستقلال النهائى فى أغلب الحالات ، ولكن الواقع أن أولى إرهاصاتها بدأت منذ بدأ تيار التحرير يهدد وجود الاستعمار وكيانه . فنى مصر بدأ الخروج الأوربى منذ مدة : فبعد قمة قياسية فى ١٩٢٧ بلغت ربع المليون انخفض عدد الأجانب إلى ١٤٦ ألفا فى ١٩٤٧ ، وفى السنوات الأخيرة تحول الخروج إلى هروب حقيقى ! وفى ليبيا كان الطليان قد بلغوا علامة المائة ألف قبيل الحرب الأخيرة ، رُحِّل منهم ٤٠ ألفا من برقة أثناء الحرب . وهم الآن نحو ٥٠ ألفا . وفى تونس رحل ٤٠ ٪ من الأوربيين منذ الاستقلال. ويقدر أن ١٦٥ ألفا من الأربيين خرجوا من المغرب وتونس معا منذ الاستقلال ، ومن الملاحظ

أن التيار يبدأ أولا بأبناء المتروبول خاصة، بينما تظل « طفيليات الاستعمار » بعدها قليلا ولكنها لا تلبث أن تستسلم للتيار . ويأتى تحت هذا التحديد العناصر اليهودية فى الدول العربية حيث تعودت أن تتخفى وراء تيار الخروج الأبيض العام قاصدة إسرائيل .

ولقد كانت المشكلة الخطيرة حقا هى مصير الاستعمار السكنى الكثيف، لأن هنا تأخذ المسألة شكلا مختلفا جدا كما فى الجزائر . وقد كان الموقف الوطنى هنا واقعيا معتدلا للغاية . ففى مثل هذه الحالة لم يكن يطمع الوطنيون أساسا إلا فى الاستقلال والتحرير وليس بالضرورة فى إخراج الأوربيين إذا قبلوا مواطنة عادية مخلصة بلا امتيازات . فقد أعلنت الثورة أنها تخيّر المستوطنين بين الجنسية الجزائرية أو البقاء كأجانب عاديين أو الخروج . ولكن الاحتمال الغالب كان أن يعمد الاستعمار السكنى إلى تصفية نفسه بنفسه بعد الاستقلال . بل إن فرنسا بدأت حينئذ تضع برنامجا لاستقبال ٤٠٠ ألف من أبنائها العائدين . وبالفعل شهدت فتره إعلان الاستقلال طوفانا من الهجرة العائدة إلى فرنسا بلغ عدده نحو نصف مليون فى أقل من شهر ! وفى الوقت

الحالى لم يعد منهم بالجزائر إلا بضع عشرات من الآلاف . وما زال الباب مفتوحا أمام من بقى فى أن يحتفظ بفرنسيته أو يكتسب الجنسية الجزائرية .

والوضع يختلف كثيرا فى حالة الاستعمار السكنى الصهيونى فى إسرائيل . فالمهاجرون هنا — بعد التصفية — لا مكان لهم تاريخيا ولا ديموغرافيا إلا فى حدود اليهود الفلسطينيين قبل الصهيونية وإسرائيل . على أن من المؤكد أن مجرد الانهيار العسكرى السياسى سيطلق تيارا من الخروج — الهروب بالأحرى — قد يشمل يهود فلسطين ما قبل إسرائيل . وهكذا لولا « إسرائيل » لما زاد الأجانب اليوم فى العالم العربي كله عن بضعة مئات من الآلاف قابلة للتناقص .

ومعنى هذا جميعا أن مصير الجزر الأوربية فى المحيط العربى هو كمصير أى جسم غريب يدخل الكائن العضوى : لا يستطيع أن يمتصه ويتمثله فيلفظه فى النهاية . وهكذا يسجل التاريخ النهاية العجيبة لمغامرة من أكبر المغامرات الملتهبة المحمومة ولرحلة من أطول الرحلات العاتية بين القارات ، مما يوحى بأن الاستعمار سكنيًّا وغير سكنى هو مجرد « جملة اعتراضية » فى تاريخ البشرية

وظاهرة فى الجغرافيا السياسيه عابرة مهما طالت ، وهى عابرة لأنها « غير طبيعية » فى النهاية .

هل يترك الخروج الأبيض « فراغا » حضاريا أو اقتصاديا خطيرا فى العالم العربى ؟ أيترك كذلك « فراغاً » سياسيا يهدد التوازن الدولى ؟ قضيتان متشابهتان أثارهما الاستعمار دائما وحاول أن يلقى بهما فى طريق تيار التحرير لعله يتقاعس . وقد خرّج الاستعمار تفريعات كثيرة من هذه الدعاوى لتضفى عليه قيمة وتنفى عنه شروره الآثمة . من هذه النظريات أن أقل الوحدات العربية تطوراً وتقدما هى التى لم تعرف الاستعمار كاليمن والسعودية بينما أكثرها تقدما وتحضراً أكثرها وأطولها التصاقا بالاستعمار كالجزائر ومصر . ودعك من سخف مغالطة الصهيونية الكاذبة عن « جنة إسرائيل التى أصبحت قطعة من أوربا » « كذا ! » . فرسالة الاستعمار فى هذا المنطق هى رسالة الحضارة والتحضير .

ولكن الحقيقة أن ليس ثمة تزييف علمى — بل غير علمى — يفوق هذه الدعوى . صحيح لقد تنبأ البعض بأن الاقتصاد الزراعى ، خاصة المشروعات الكبرى ، والاقتصاد التعدينى

والتصنيع النامى قد تضطرب لسنوات بعد الخروج . وصحيح أن بعض الدول العربية لم ترحب كثيرا بهذه الهجرة الفجائية التى قد ترج الاقتصاد القومى بما تسحبه معها من رأس المال والخبرة الفنية . على أن هذه المشكلة مؤقتة جدا ، بل لم تكد تتحقق — على الأقل بالاستعانة بخبراء أجانب غير استعماريين . أما أن يخشى البعض على المستوى الحضارى والاقتصادى للمنطقة أن ينتكس بعد الخروج فأمر تكذبه الثورة الاقتصادية والطفرة الحضارية التى واكبت التحرير فى كل أجزاء العالم العربى لاسيما مصر .

وأما أن يعتذر البعض بعدهذا عن الاستعمار بانه كان وسيلة التحضير acculturation فإن هذا منطق تبرير محض . وهو ينبثق فى الحقيقة عن نظرية أولية هى نظرة التلازم بين مبدأى الاستعمار والتحضير. والواقع أن هذه النظرية فاسدة برمتها وتعد بلا امتراء النقطة السوداء الكبرى فى الحضارة الأوربية . فليس الاستعمار شرطا أو ثمنا للتحضير ، وليس احتكاك الأجناس الأداة الوحيدة لاحتكاك الحضارات . والنظرية الوطنية العربية المعتدلة ترى أننا فى حاجة إلى حضارة أوربا ولكن ليس إلى استعمارها ؛ إننا نريد خبراء لاحكاما وفنين لا مستوطنين .

وأخيراً فإن نظرية الفراغ الحضارى التي يريد الاستعمار أن يملأه تتجاهل التاريخ والوجود الحضارى الأصيل للعرب، وأكثر منه أن جذور حضارته إنما استمدت من العالم العربى الوسيط.

وإذا كانت أوربا اليوم تعد نفسها من وجهة نظرها «أستاذة» العالم العربى — وغير العربى فى هذا المجال — فمن الحق أنها كانت «تلميذة» للعالم العربى منذ قرون. وعلى كل فحين يتحول الأستاذ إلى لص يبتز تلاميذه تنهار العلاقة تماما ولعل فرنسا بالذات هى صاحبة مدرسة «الاستعمار حضارة» التى تتسق مع فلسفة الحكم المباشر والتمثيل assimilation — وبدرجة أكبر — مع غروورها وهوسها بسياسة المجد وهى الأكثر ترديدا للنغمة الاستعمارية المألوفة من أنها هى التى خلقت الجزائر الحديثة وبقية المغرب بما أدخلت من عناصر الحضارة الحديثة — عمارة وطرقا ومواصلات وإنتاجا ومستوى معيشة ونظم اجتماعية وسياسية. بل وسكانا (!). فالاستعمار دائما يردد أن ملايين السكان الآن هم نتيجة مباشرة لحضارته ومنشآته وطبه... إلخ. وبالمثل طالما ردد الاستعمار البريطانى فى مصر والعراق أن كل البناء الحضارى الحديث ابتداء من مشاريع الرى والسدود والقناطر إلى المحاصيل التجارية إلى العمران وجسم

السكان . . . إلخ إنما يبدأ من تكنولوجيا الاستعمار وفنونه وإليها ينتهى .

والحقيقة أن الاستعمار أعطى المنطقة زبد حضارته وأخذ منها زُبْد حياتها : فهو ينسى فى هذا الادعاء الملايين التى أهلكها بكل وحشية ، وانهيار المستوى المعيشى ، والإفقار المتعمد وابتزاز كل خيرات الإقليم عدا حريته ، كما ينسى أن الإقليم قبله كان له حضارته وأجهزته الاجتماعية والسياسية المنظورة . كل هذا عن الحضارة حين السلم . . .

أما سياسيا وعسكريا فدعوى الاستعمار فى المنطقة كانت — للغرابة — السلام والحرية ! فقد وجد الاستعمار دائما خطراً خارجيا يلوح به للعالم العربى ويتخذه كبش الفداء الذى يلهيه عنه ، هو الخطر الواقع الجاثم . . كذلك كانت الشيوعية ، ومن قبلها النازية والفاشية . فأى « هدية » يمكن أن يقدمها الاستعمار للمنطقة . أكثر من السلام البريطانى Pax Britanntca مثلا ؟ ! وكما أن فرنسا صاحبة مدرسة « الاستعمار حضارة » ، فإن بريطانيا بمصالحها الاستراتيجية وتحكمها غير المباشر ألصق بنظرية « الاستعمار سلام » . ومن الطريف أن الفاشية بدورها كانت تدعى أنها «حامية الإسلام»

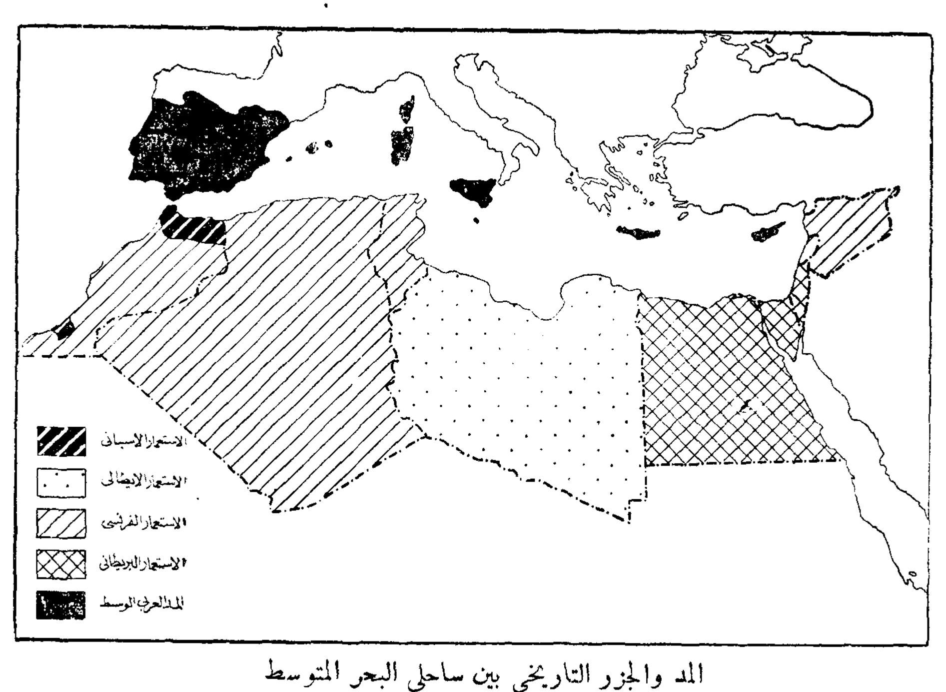
فى المنطقة ! . ولكن مثل هذه الدعاية الساذجة لم تأت — تماما كما حدث فى آسيا المدارية وإفريقيا السوداء — إلا أثرا عكسيا وارتدت إلى صدر الاستعمار . بل لم يكن أخطأ من هذا سوى مازعمه الاستعمار من قبل من أنه الذى « حرر » العرب من الاستعمار التركى أو أن الحملة الفرنسية هى التى حررت مصر من المماليك !

والاستعمار فى كل هذا يلعب فى الواقع على نظرية الموقع الجغرافى الوسيط للعالم العربى بحسبانه « منطقة ارتطام Crush Zone » بين قوى « قطبية » هائلة القدر شرقا وغربا برا وبحرا . وهذا مفهوم حتمى قدرى لفكرة الموقع ، يكذبه تاريخ المنطقة نفسها حين سادت هى فى وقت ماهذه القوى القطبية أو بعضها وكانت مركز الثقل السياسى فى العالم . والخلاصة أن نظرية الفراغ الحضارى والمادى ، أو السياسى والعسكرى ، التى فجرها التحرير ، إن لم تكن فى التحليل الأخير نظرية عنصرية استعلائية فهى ليست إلا وهما وتبريرا اصطنعه الاستعمار ، ولكنه لا يبرر أكثر مما يبرىء .

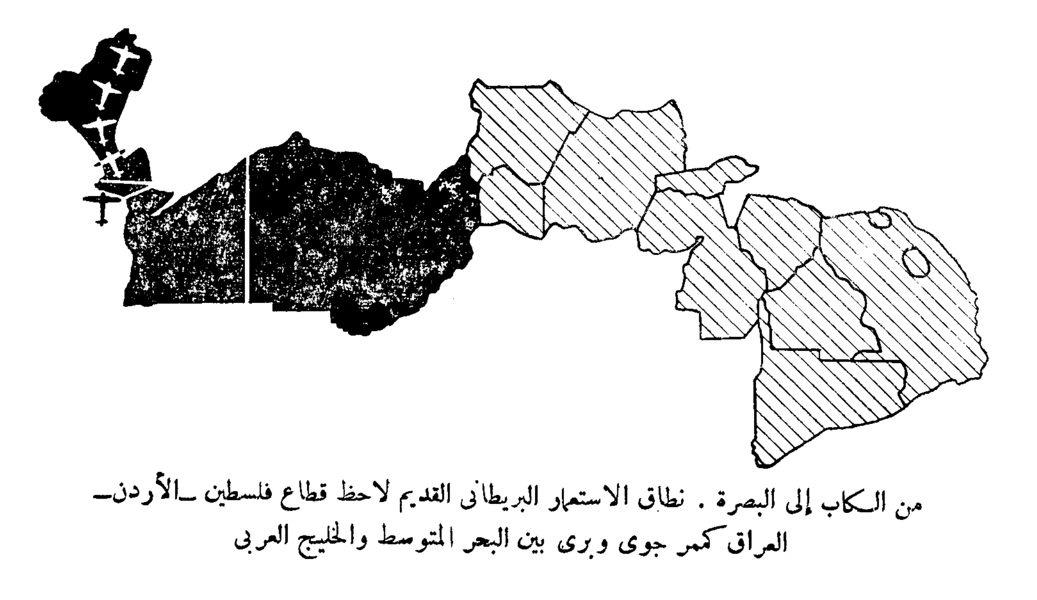
ولن تكون فى المنطقة حضارة مكتملة متوثبة ، ولن يكون فيها سلام حقيقى شريف ، إلا بزوال كل أثر للاستعمار الأجنبى

من كل شبر فيها . وإذا كان الاستعمار ما زال يتشبث بارضه في بعض أجزاء المنطقة ، فهذه سكرات الموت ، وزواله الآن حتم تاريخي وحتم جغرافي وحتم بشرى . وهو حتم تاريخي لأن هذه حركة التاريخ وسهم الزمن . وهو حتم جغرافي لأن الرقعة الكبرى المطلقة من المنطقة قد لفظته من قبل . وهو حتم بشرى لأن الإرادة العربية قد تحددت أساساً في هدف أولى هو الحرية.

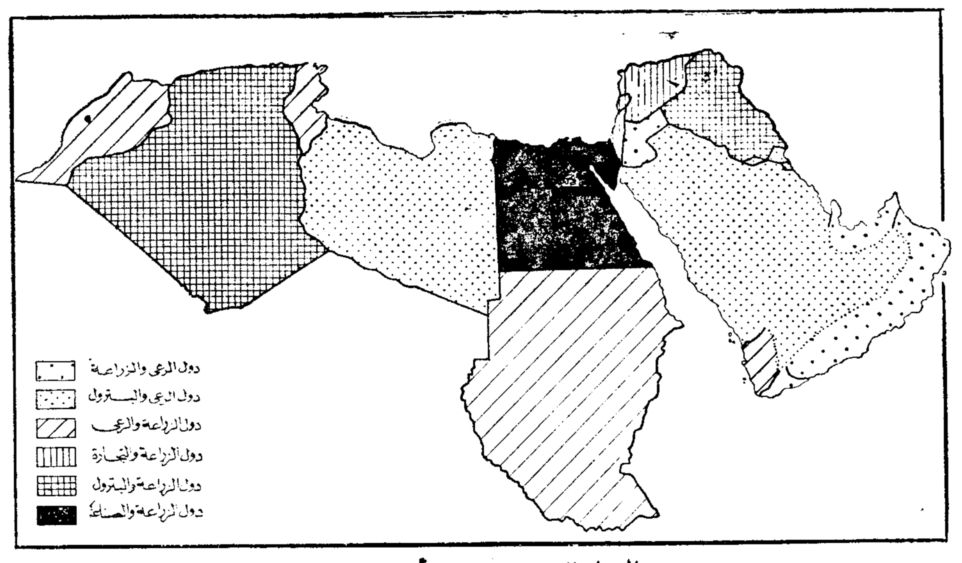




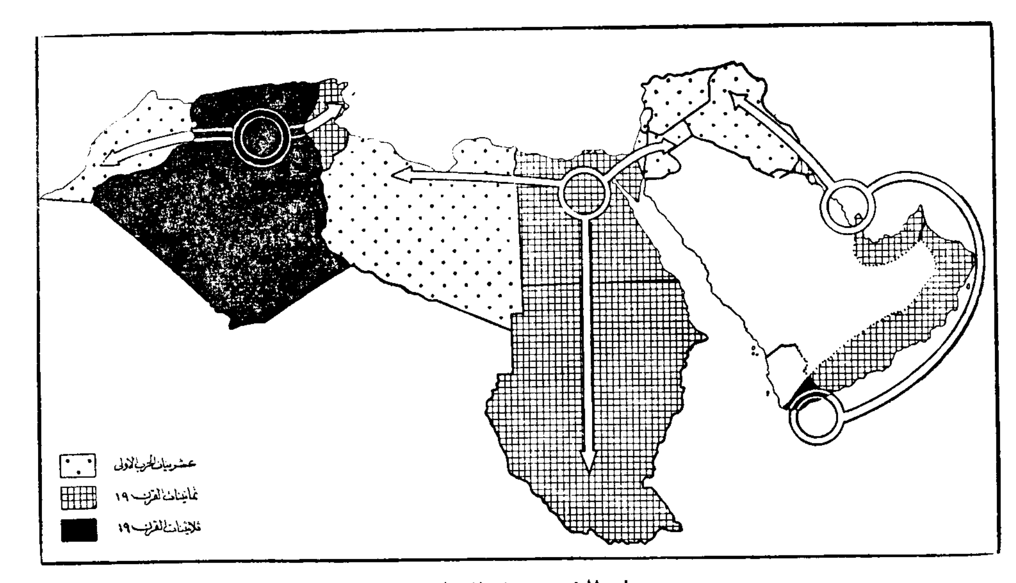
المد والجزر التاريخى بين ساحلى البحر المتوسط



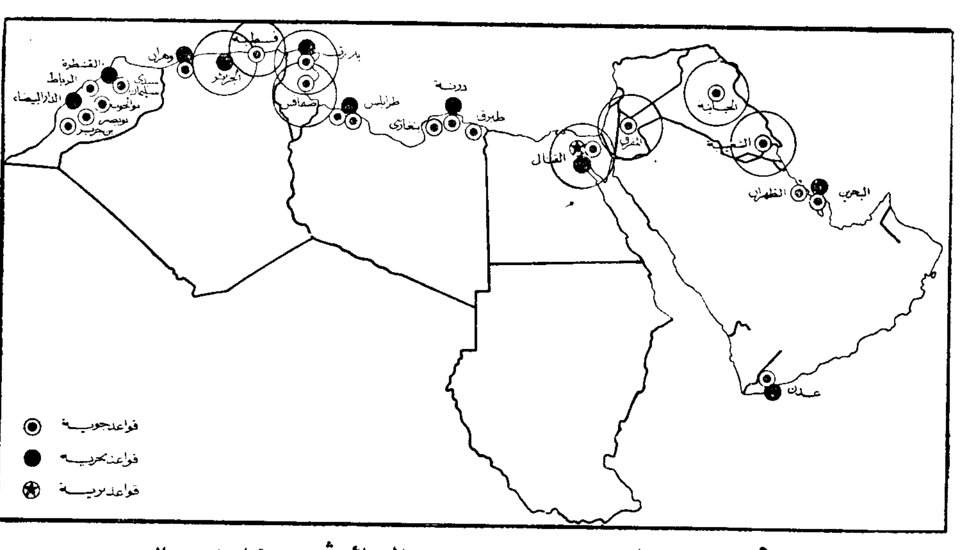
من الكاب إلى البصرة . نطاق الاستعمار البريطانى القديم لاحظ قطاع فلسطين ـ الأردن ـ العراق كممر جوى وبرى بين البحر المتوسط والخليج العربى



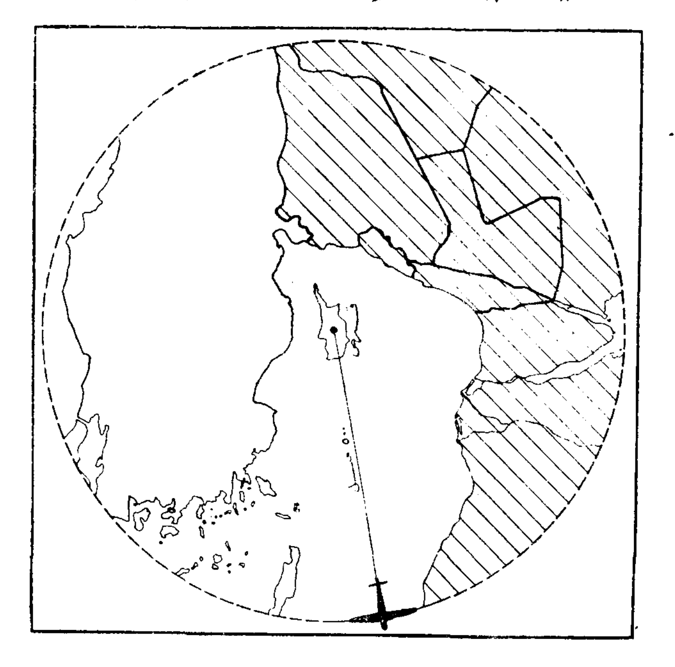
تصنيف الدول العربية بحسب الأساس الاقتصادى

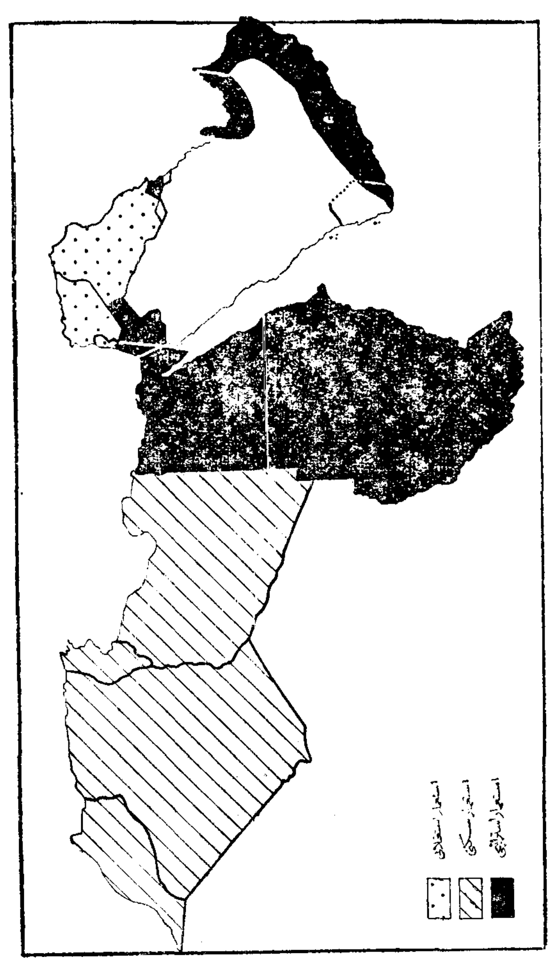


موجات الاستعمار فى الوطن العربى



القواعد الأجنبية فى العالم العربى . القواعد داخل الدوائر ثم تصفيتها على يد التحرير





أنواع الاستعمار في العالم العربي

المكتبة الثقافية

تحقق اشتراكية الثقافة

صدر منها :

١	— الثقافة العربية اسبق من ثقافة اليونان والعبريين	للاستاذ عباس محمود العقاد
٢	— الاشتراكية والشيوعية ...	للاستاذ على ادهم
٣	— الظاهر بيبرس فى القصص الشعبي	للدكتور عبد الحميد يونس
٤	— قصة التطور	للدكتور انور عبد العليم
٥	— طب وسحر	للدكتور بول غليونجى
٦	— فجر القصة	للاستاذ يحيي حقى
٧	— الشرق الفنان	للدكتور زكى نجيب محمود
٨	— رمضان	للأستاذ حسن عبد الوهاب
٩	— اعلام الصحابة	للأستاذ محمد خالد
١٠	— الشرق والإسلام	للأستاذ عبد الرحمن صدقى

الثمن قرشان

مطابع دار القلم